بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٥٦ ـ صفر ١٤٣٣هجرية قمرية

دي١٣٩٠هجرية شمسية /كانون الثاني (يناير) ٢٠١٢

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥ـ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الطباعة: حسين المندلاوي / على حروف (**قلم برتر**) خاص بالنشر المحترف

النسخة رقم (٢) من www.MaryamSoft.com

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.IranArab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٥٦

الملتقى الثالث بحضور الإمام الخامنئي ٤
دور المرأة في عملية التنمية الاجتماعية ١٢
التجزئة الطائفية حقيقتها وعواملها ٢٦
الوجه الإنساني للإسلام ٣٢
كنّا قرية كبيرة ٣٦
ثورة الاتصالات على طريق العطاء ٣٨
"القومية" و"الرسالي" في حركة الإمام الخميني ٤٧
الركود الحضاري والحراك الحضاري ٥٠
الموقف من الآخر ٥٥
التعاون التراثي ٦٤
ظاهرة مالك بن نبي ٦٧
شهادتان حول أزمة الدارسين في الغرب ٧٤
ظاهرة المؤسسات الحضارية ٧٨
التعايش الأخوي العربي الإيراني ٨٢
الثقافة الإسلامية في إيران ٨٦
أسر إيرانية في الحضارة الإسلامية ٩٥
الأصالة والمعاصرة في حركة الأفغاني ١٠٥
مأساة الطائفية في ذكريات الجواهري ١١٥

المرأة والأسرة..
الملتقى الثالث للأفكار الاستراتيجية
ينعقد بحضور الإمام الخامنئي

في الرابع من يناير ٢٠١٢م اجتمع المئات من المفكرين و النخبة وأساتذة الحوزات والجامعات و الباحثين والمؤلفين مع سماحة الإمام الخامنئي في الملتقى الثالث للأفكار الاستراتيجية في الجمهورية الإسلامية لتبادل وجهات النظر و دراسة الأبعاد المختلفة لموضوع المرأة و الأسرة.

الهدف من إقامة ملتقيات الأفكار الاستراتيجية التي أقيم منها في السابق ملتقيان تحت عناوني «النموذج الإسلامي - الإيراني للتنمية» و «العدالة» هو خلق مناخ علمي و تخصصي لتضارب الآراء و الأفكار باتجاه تكوين خطاب علمي و عملي و اتخاذ قرارات بشأن الموضوعات الاستراتيجية التي تحتاجها البلاد.

في هذا الملتقى الذي استمر أربع ساعات تحدث عشرة من المختصين الذين اختيرت بحوثهم و دراساتهم من بين ١٨٨ دراسة وصلت الأمانة العامة للملتقيات الاستراتيجية كأفضل الأعمال و

الدراسات، قدموا آراءهم و نظرياتهم في خصوص موضوع الملتقى. و بعد عرض البحوث العلمية تحدث سماحة الإمام السيد علي الخامنئي موضحًا أن الغاية من إقامة سلسلة ملتقيات الأفكار الاستراتيجية مع النخبة و العلماء و المفكرين هي تبادل الآراء العلمية بهدف توفير أرضية للاستفادة من مختلف الآراء العلمية و الوصول إلى فكر صحيح و جامع كقاعدة للبرمجة و التخطيط و التنفيذ مؤكدًا: أنّ مكتسبات هذه الملتقيات التي تتواصل حول موضوعات أساسية يجب أن تكون رصينة و عميقة و طويلة الأمد و ممكنة العرض و الدفاع عنها.

و قال سماحته: بخصوص الموضوعات المطروحة في الملتقيين السابقين أنجزت أعمال جيدة و تمت متابعتها بنحو جاد. و أكد قائد الثورة الإسلامية على أن قضية المرأة و الأسرة من قضايا الدرجة الأولى في البلاد مضيفًا: بخصوص المرأة و الأسرة هناك مصادر و تعاليم إسلامية متميزة و متقنة يجب تنظيرها و عرضها على الجميع كنظريات ممكنة الاستفادة و التطبيق.

و عدّ قائد الثورة الإسلامية دور المرأة في النظام الإسلامي ممتازًا وفذًا مشيرًا إلى دور السيدات في فترة الكفاح و في فترة انتصار الثورة الإسلامية و بعد الثورة و خصوصًا خلال فترة الدفاع المقدس البالغة الصعوبة و في الميادين المختلفة، مؤكدًا ما كان لهنّ من دور مؤثر و ممتاز و لا بديل له و لا يمكن قياسه بأي معيار من المعايير.

و أضاف قائد الثورة الإسلامية: أول شخص أدرك الدور الممتاز

للمرأة و مكانتها و مهّد الأرضية للنسوة كى يقمن بدورهنّ في مختلف الميادين هو الإمام الخمينى الراحل، كما كان أول شخص أدرك مكانة الشعب و تأثير تواجده في الساحة.

وقال سماحة الإمام: عرف الإمام الخمينى (رض) قدر الشعب وقدراته و وثق به اعتمادًا على هذه المعرفة، و استجاب الشعب لدعوة الإمام (رض) في الميادين المختلفة، و دخلت كل الطبقات والشرائح إلى كل الميادين بشجاعة و تضحية ليستمر هذا التواجد الواعي و الضروري إلى اليوم.

و شدد سماحته على أن البلاد بحاجة دومًا إلى تواجد المرأة في الساحة وعلى هذا الأساس يجب العمل على حفظ إمكانيات السيدات في المجتمع و قدرتهنّ على القيام بدورهن.

و أوضح قائد الثورة الإسلامية أن السبب المهم الثاني لضرورة الاهتمام بموضوع المرأة دورها الأساسي و المحوري في الأسرة. وأضاف سماحته: إنّ الأسرة في النظرة الإسلامية ركن جدّ مهم والخلية الأصلية للمجتمع، فمن دون العوائل السليمة والوثّابة والنشيطة لن يكون من الممكن تقدم المجتمع خصوصًا على الصعيد الثقافي، و مثل هذه العوائل لا تتكوّن و لا تستمر من دون وجود النساء المؤمنات الواعيات.

و اعتبر قائد الثورة الإسلامية تركيز الأعداء على قضية المرأة واحدًا من أركان هجومهم السياسى - الإعلامي ضد النظام الإسلامى والسبب الثالث لضرورة الاهتمام التام بقضية المرأة مضيفًا:

يجب عن طريق تنوير الرأى العام العالمي أن لا نسمح بتحقق أهداف المخططين الغربيين في الهجوم على أسس الإسلام فيما يتعلق بقضية المرأة.

و في هذا الصدد أشار سماحته إلى التهرّب المخادع للغرب من الخوض في قضية الأسرة قائلاً: **يثير الغربيون قضية المرأة بشدة لكنهم لا يذكرون الأسرة، لأن قضية الأسرة من نقاط ضعفهم البارزة.**

و أشار سماحة الإمام السيد الخامنئي إلى الأعمال الكثيرة التي تنتظر الإنجاز فيما يتعلق بقضية المرأة و الأسرة مؤكدًا: أنّ التنظير وصناعة الخطاب في هذا المجال حاجة حقيقية يجب أن تحظي باهتمام رجال الدين و المفكرين و أصحاب الخبرة في الحوزة والجامعة، و بالطبع فإن دور وسائل الإعلام مهم أيضًا و بدرجة كبيرة في عملية صناعة الخطاب.

و عدّ الإمام الخامنئي الاستثمار البحثي و تجنب الانفعال في «دراسة و نقد النظريات الدارجة في العالم حول المرأة و الأسرة» شرطين مسبقين للتنظير في هذا المجال مضيفًا: **يجب على المدى المتوسط و البعيد و بالاعتماد على الأرصدة العلمية الجمّة استخراج وعرض عشرات النظريات و النماذج التقدمية من الإسلام.**
و اعتبر سماحته نظرة الغرب للمرأة ضلالة عميقة و أكبر إهانة وضربة توجّه لكرامة المرأة مضيفًا: حتى إنّ أكثر المدافعين عن حقوق المرأة في الغرب يعملون على توجيه ضربة قاصمة للمرأة ،

لأنهم بتضييع المرأة يحوّلونها إلى أداة و وسيلة لشهوات الرجل، و هذه المسألة للأسف ظاهرة عادية و مقبولة لدى الرأي العام الغربي.

واعتبر قائد الثورة الإسلامية نظرة الإسلام للمرأة نظرة متسامية للغاية و أضاف مؤكدًا: أنّ المرأة في النظرة الإسلامية الأساسية لا فرق بينها و بين الرجل إطلاقًا، و حسب الآيات القرآنية فإن المرأة والرجل متساويان تمامًا في طريق التسامي و القرب إلى الله.

و اعتبر سماحته نظرة الإسلام للعائلة جدّ متسامية و جذابة وقال: إنّ الكثير من مشكلات المرأة ترتبط بقضايا الأسرة، و في هذا المجال لدينا فراغات قانونية و فراغات تقليدية عجيبة و كثيرة، و إذا تمت معالجة هذه المسائل قلّت مشكلات المرأة في المجتمع.

و أوضح قائد الثورة الإسلامية أن الفرق الجنسي في النظرة الإسلامية أمر ثانوي و عارض مردفًا: إنّ قضية الفرق في الجنس تكتسب معناها في التطبيقات العملية للحياة و لا تأثير لها أبدًا في مكانة المرأة و الرجل في الإسلام.

و اعتبر سماحته دور الزوجة و الأم مهمًا للغاية و أضاف قائلاً: **الزوجة الصالحة يمكنها جعل الرجل عنصرًا مفيدًا و مؤثرًا في المجتمع.**

و عدّ الإمام الخامنئي قضية عمل المرأة في المجتمع أمرًا مقبولاً ولا إشكال فيه مؤكدًا: أنه يجب في هذا المجال مراعاة شرطين أساسيين بشكل كامل، الأول هو أن لا يؤثر عمل المرأة على عملها الأساسي في البيت و الأسرة و مسؤولياتها المهمة كزوجة و أم، والشرط الثاني هو مراعاة قضية المحارم و غير المحارم بشكل جيد.

و أوصى سماحته الحكومة بمساعدة النساء العاملات مردفًا: يجب أن تخطط الحكومة بشكل يتيح للنساء العاملات الاهتمام بعملهن الرئيسي أي النهوض بمسؤوليات البيت و الأسرة.

و اعتبر قائد الثورة الإسلامية الزواج أمرًا مقدسًا فى مختلف الأديان وخصوصًا الدين الإسلامي منوهًا: أنه يجب عدم محو الطابع القدسي للزواج في المجتمع ببعض الممارسات القبيحة من قبيل المهور العالية أو التشريفات و التكاليف الباهضة.

وأكد آية الله العظمى السيد الخامنئي على أن إشاعة مراسم الزواج البسيطة و القليلة التكاليف و بمهر السنّة بحاجة إلى صناعة خطاب في المجتمع مردفًا: الأشخاص المؤثرون في المجتمع و أساتذة الحوزات و الجامعات و وسائل الإعلام و خصوصًا الإذاعة والتلفزيون لهم دور مهمّ في تكوين هذا الخطاب.

كما اعتبر سماحته دور الرجال أيضًا مؤثرًا جدًا في صيانة الأسرة قائلاً: من الواجبات المهمة للرجال معرفة قَدر دور النساء و جهودهنّ في البيت و خصوصًا النساء اللواتي يستطعن العمل خارج البيت لكنهنّ لا يخترن ذلك من أجل القيام بدور الأمومة على أحسن نحو.

و أكد قائد الثورة الإسلامية على ضرورة معرفة قَدر هؤلاء النسوة خصوصًا في تأمين الأمن الاقتصادي و الضمان الاجتماعي لهنّ.

و أشار الإمام الخامنئي في نهاية حديثه إلى دور الأبناء في الأسرة معتبرًا احترام الوالدين من أهم واجباتهم.

و قد تحدث فى هذا الملتقى قبل كلمة سماحة قائد الثورة كل من السادة و السيدات:

-الدكتورة نوابى نجاد أستاذة جامعة تربيت معلم.

-الدكتور بانكى پور فرد أستاذ مساعد في جامعة إصفهان.

-الدكتورة علاسوند أستاذة في الحوزة و الجامعة.

-حجة الإسلام پيروزمند باحث في الحوزة و الجامعة.

-الدكتورة ميرخاني عضوة الهيئة العلمية في جامعة تربيت مدرس.

-الدكتورة عظيم زادة عضوة الهيئة العلمية فى جامعة الإمام الصادق (ع).

-الدكتورة علم الهدى أستاذة مساعدة فى جامعة الشهيد بهشتي.

-السيدة زعفرانچى المشرفة على جماعة دراسة قضايا المرأة في مركز أبحاث العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية.

-السيدة صابري باحثة جامعية.

-حجة الإسلام زيبائي نجاد مسؤول مكتب دراسات و بحوث المرأة فى الحوزة العلمية بقم.

و قد تطرق المتحدثون في بحوثهم للمحاور و القضايا التالية:

-ضرورة دراسة الآفات و النواقص فى الواقع القائم و عرض نموذج منشود للعائلة.

-العلاقة ذات المغزى بين الدين و المعنوية و بين السلامة النفسية الفردية و العائلية و الاجتماعية.

-تباين قضية الأسرة في النموذج الإسلامي الإيراني للتقدم و «نموذج التنمية الغربية».

-ضرورة دراسة أسباب الارتفاع النسبي لسن الزواج.

-الاهتمام بالجذور الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية لعقبات الزواج.

-ضرورة سن و تطبيق قوانين تسهل الزواج.

-عرض نموذج جيد للتواصل الصحيح بين الأسرة و الحكومة في النظام الإسلامي.

-اختيار نظرية مثلى لدور المرأة الاجتماعي.

-الدعم القانوني لفرص العمل المناسبة للخصوصيات الطبيعية عند المرأة و الرجل.

-الجهود المتناسقة و المبرمجة لتحقيق الرسالة العظيمة للأم والمؤسسة العائلية.

-التنوير في مجال التعارض بين النزعة النسوية و الأدوار الحقيقية للعائلة.

-تغيير أصول البرمجة و رسم السياسات في حيّز تعليم المرأة.

-أساليب تأثير المرأة المسلمة في الأنظمة الحقوقية الخاصة بالمرأة في المجتمع الدولي.

-عرض خطاب إسلامي جذاب لاستقطاب أذهان المرأة في العالم.

-دراسة آفات الأمن الاقتصادى للمرأة و التفكير بسبل الحل.

-الاستفادة من إمكانيات فقه الدولة لصناعة نموذج في ميدان المرأة و الأسرة.

دور المرأة في عملية التنمية الاجتماعية

محمد علي التسخيري *

المرأة تارة ننظر إليها بوصفها إنسانا فعالا في عملية التنمية، وأخرى نركز عليها بما لها من خصائص تنفرد بها باعتبارها الأم والبنت والأخت والزوجة، وهي بهذا الاعتبار تمتاز عن الرجل بما تحمله من طاقات عاطفية متميزة، وقدرات تكوينية مؤثرة، ومن ثم ما تحمله من وظائف اجتماعية فريدة.

فإذا نظرنا إليها بوصفها إنسانًا نشطًا في عملية التنمية، وأخذنا بعين الاعتبار حقيقة (أن الإنسان هو محور التنمية)، ومقولة أن (التنمية المستمرة هي تلك التي تحقق انسجامًامتوازنًا بين مجموع عناصر التنمية، والأسس التحتية للثقافة المعنوية التي تعمل في مجال إسقاطاتها)، وأدركنا بعد ذلك أن مكونات الفطرة الإنسانية هي أهم هذه الأسس واعمقها في وجود الإنسان، بل بدونها يفقد الإنسان هويته ويتحول إلى (شيء) لا نستطيع أن نتحدث عن

---

* -الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

(حقوقه) أو (نموه الاجتماعي) ، أو (حركته العادلة)، أو (أخلاقيته)، أو حتى (بقائه الحضاري)، وأضفنا إلى كل هذا حقيقة أخرى هي أن الدين (الذي يستمد أصوله من منابع فطرية) هو الصيغة الأكمل التي وضعها خالق الإنسان ليحقق من خلالها تكامله المادي والمعنوي المنسجم، وأن الدين وحده هو الذي يستطيع أن يمنح هذه المسيرة ثباتًا في الهوية والشخصية، واطمئنانًا في القلب، وأملاً دفاقًا بالمستقبل، كما يستطيع أن يحل الإشكالات الاجتماعية الكبرى من قبيل حل التضاد الدائم بين حب الذات والأنانية، والعمل لصالح المجتمع ونسيان الذات في سبيله، وحل التناقض بين اتجاهات (الإلحاد) واتجاهات (الإيمان المفرط بالأمور النسبية أو مايسمى بالشرك)، إذا أخذنا بعين الاعتبار كل هذه الحقائق الكبرى أردكنا أن المرأة الإنسان هي محور التنمية وركنها الركين، ولن تستطيع أية عملية تنموية أن تحقق صدقًا مع ذاتها ومدعياتها، إلا إذا طورت الحس الإنساني والفطري في وجود المرأة، وأعطتها مكانتها الإنسانية الطبيعية، ورفعت من البين كل عناصر التفريق ـ من الجانب الإنساني ـ بين الرجل والمرأة، ومنحتها الدور الإنساني المتساوي في هذا المضمار، ثم عادت لتستفيد من هذه الطاقة الإنسانية الخيرة لصالح المجموع بأفضل أسلوب.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن المرأة إن تأصل الثبات في شخصيتها، والاطمئنان في قلبها، والامل بالمستقبل في وجودها منحت كل المسيرة الاجتماعية طاقة كبرى، وهيأت لها كل مقومات المسيرة الصالحة.

المرأة ودورها بملاحظة خصائصها:

و إذا عدنا وركزنا على خصائص المرأة التي تميزها عن الرجل، فنسجد أن خصائصها لا تغير مطلقًامن قيمتها الإنسانية بل تزيد عليها، و إنما تترك أثرها الوظيفي في البين، بمعنى أن هناك تقسيمًاطبيعيًا قدّرته الرحمة الإلهية بين وظيفة الرجل ووظيفة المرأة، في عملية التنمية الاجتماعية بل الفردية أيضًا.

فالمرأة الزوجة والمرأة الأم لهما دوران متمايزان عن دور الرجل الزوج، والرجل الأب بلاريب، إلا أن هذين الدورين متكاملان تمامًا بحيث لا يمكن أن تستغني الحياة عن هذين الدورين، بمقدار عدم امكان استبدال أحدهما بالآخر تمامًا.

بعد هذا نقول: إن للمرأة أثرها الكبير ـ بهذا الاعتبار ـ على عملية التنمية أيضًا، ومهما تعددت علل التنمية فشملت (العلل الفاعلية، والعلل الغائية، والعلل الصورية بالإضافة للعلل المادية)، فإن إسقاطات دور المرأة يبقى لها أكبر الأثر في هذا المجال.

ذلك أن المرأة تستطيع أن تترك آثارًا كبرى، نذكر منها على سبيل المثال مايلي:

١ـ اعداد وتهيئة وتوفير البيئة العائلية السليمة، وهي بهذا ـ لو وفّقت فيه ـ تستطيع أن تضع الحجر الأساس لمجتمع إنساني سليم ثابت الجأش قوي القلب، منشدّ للمستقبل.

وبدون هذا سيبقى المجتمع ممزقًا عاطفيًا، ومهلهلاً معنويًا تتفشى فيه الجريمة، ويعيث فيه الكسل، ويفقد صفته الخلاقة شيئًا فشيئًا.

فالزوجة الصالحة والأم الصالحة هما قوام الحياة العائلية الصالحة، وهذه بدورها هي قوام المجتمع الصالح (كما تؤكد ذلك النصوص الإسلامية).

٢- توفير الجو المناسب لتربية الجيل القوي الفاعل.

وقد قلنا: إن الإنسان الصالح هو محور التوسعة، وهو يحتاج إلى عملية تربوية مستمرة تفجر فيه طاقاته، وتبرز فيه مكوناته الذاتية، وهي لا تتفجر ولا تبرز عشوائيًا وتلقائيًا، وإنما تحتاج إلى عملية تربوية وجوّ تربوي مناسب.

ولا ريب أن للمرأة أعظم الأثر في تربية العناصر الإنسانية، ووراء كل عظيم امرأة ـ كما يقولون ـ بل ما أكثر العظماء النساء في تاريخنا الطويل.

٣- الإعداد لجو وبيئة حماسيين عاطفيين من خلال الاستعداد الطبيعي للمرأة، لتسد به هذه الحاجة الضرورية للإنسان من جهة، وتوفر له الحالة الحماسية الضرورية لتخطي العقبات وصنع تنمية اجتماعية مستديمة من جهة أخرى.

أما المجتمع الذي يخلو من هذه الحالة العاطفية والحماسية فهو مجتمع خامد، وبيئة جامدة ربما تتقدم في بعض المجالات المادية إلا أنها تفقد الصفاء الإنساني المطلوب، ومن بعد تفقد القدرة على إيجاد التنمية المتوازنة.

ومن هنا يظهر جليًا أن المرأة لها دور كبير في توفير الجو العائلي النظيف، وأن العائلة وتشكيلاتها بما لها من مفهوم كلاسيكي

معروف لدى المجتمعات والأديان كلها، هي حجر الزاوية في عملية التنمية.

كما يظهر أيضًا أن أية ضربة توجه لدور المرأة في البناء العائلي المشار إليه، وأي تقليل من أهمية الرباط العائلي المقدس، أو محاولة لطرح مفاهيم جديدة، وادعاء مصاديق عصرية له، أو إضعاف روابطه، أو إيجاد بديل مزعوم له، كل هذه المحاولات تترك أعظم الآثار السلبية على مستقبل الإنسانية جمعاء، وتفقده الحركية التنموية المطلوبة، بل هي تآمر واضح على كل الوجود الإنساني حتى ولو جاء هذا التآمر تحت غطاء الخدمة الدولية لعملية التنمية.

وهنا يجب أن نلاحظ أن الإسلام اسهم المرأة في عملية التنمية بشكل كبير.

* * *

المحاولات الدولية في مجال التنمية الاجتماعية:

لاريب في أن عملية التنمية استأثرت من أنشطة الأمم المتحدة بالحظ الوفير، وخصوصًا في السنوات الأخيرة، وعقدت لها مؤتمرات دولية على مختلف المستويات ، كمؤتمر بخارست ١٩٧٤، ومؤتمر مكسيكو سيتي ١٩٨٤ ومؤتمر القاهرة ١٩٩٤ ومؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٩٥، وغيرها من الاجتماعات الدولية، وخصوصًا تلك المنعقدة لدراسة حقوق المرأة بالخصوص كمؤتمر نايروبي ومؤتمر بكين. وكان التركيز على دور العائلة في عملية التنمية ملحوظًا تمامًا في كل الاجتماعات الدولية.

إلا أن الملاحظ في مختلف الوثائق المقترحة أنها نظمت تنظيمًا يبعدها عن المسيرة المتوازنة، وينسيها دور الدين في الحياة، ويتغافل أثر العناصر المعنوية في هذا الصدد. بل يفسح المجال لاستغلالها سلعة وألعوبة وتمييع المجتمع بها وتفكيك الروابط العائلية وفسح المجال لعمليات الإجهاض القاتلة.

وكانت وثيقة القاهرة المقترحة على مؤتمر السكان والتنمية القنبلة الضخمة التي فجرت الوضع. ورأى المخلصون التآمر الاستعماري الواضح على كل القيم والمقدسات الإنسانية، لأنها سعت إلى تفكيك الروابط العائلية، وطرح مفاهيم متنوعة للعائلة، وفسح المجال لعلاقات وروابط خارج الإطار العائلي. وقد حضرتُ هذا المؤتمر على رأس الوفد الإسلامي الإيراني على أمل أن نترك أثرًا إيجابيًا على الوثيقة وهذا ما حدث، إذ رغم عدم التنسيق بين مواقف الدول الإسلامية -التي قاطع القليل منها حضور المؤتمر- ورغم قوة الضغط الغربي المعادي للإسلام، فقد استطعنا تشكيل مجموعة إسلامية قوية تعاونت مع المجموعة المسيحية الدينية واستطاعت أن تغير عشرات المصطلحات والمواقف في الوثيقة من قبيل حذف مصطلحات (الحق الجنسي) و(العلاقات الأخرى غير علاقات الزواج) وحذف عنصر الإلزام في الوثيقة، وكذلك تعديل المادة التي تسمح بالإجهاض وغير ذلك، وقد ألقيتُ في الاجتماع الدولي خطابًا أكدت فيه على الحقائق التالية:

أولاً: إننا إذ نحاول تنظيم التحرك السكاني في إطار من التوسعة

المطلوبة علينا قبل كل شيء أن ننظر الى الإنسان بكل أبعاده المادية والمعنوية ليكون تخطيطنا منسجمًا مع فطرته الإنسانية وموقعه من الكون. وفي هذا الصدد نعتقد أن هذه المشكلة الاجتماعية لاتكمن في عدم استجابة الإمكانات الطبيعية لمعدلات النمو السكاني بل هي تنبع من عدم الاستثمار الجيد لهذه الإمكانات وأنماط الظلم في توزيعها، يقول القرآن الكريم وبعد أن يذكر النعم الإلهية الكثيرة: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ .

ثانيًا: إن ملاحظة الواقع الإنساني عبر التاريخ وما تقرره الشرائع الإلهية في نظرياتها الاجتماعية تؤكد أن الكيان العائلي يشكل حجر الزاوية في البناء الاجتماعي، وأن أي تحرك يوهن من استحكامه أو يطرح بديلاً عنه يشكل ضربة للمسيرة الإنسانية الأصيلة. ولكن هذا لا يعني مطلقًا أن لانلجأ إلى تنظيم هذا الكيان بالأساليب المشروعة فذلك جزء من تحكيمه وتوجيهه.

ثالثًا: إن للمرأة باعتبارها نصف المجتمع الإنساني دورها الأساسي في صياغة البناء الاجتماعي والسياسي ويجب بكل تأكيد أن تلعب دورها بكل ثقة ودونما أي حط لكرامتها او امتهان لقدراتها الإنسانية.

رابعًا: إن أية خطة واقعية لإقامة تنمية مستقرة لايمكنها أن تتغافل دور القيم الأخلاقية والعقيدة الدينية في تحكيم أسس التنمية والإشباع المتوازن لمتطلبات الإنسان باعتباره محور الإعمار. فلابد إذن من التأكيد على هذه القيم والعمل على دعمها ونفي كل ما ينافيها.

خامسًا: إن مبدأ التساوي في إمكانية الاستفادة من الخيرات الطبيعية وهي هبة الله تعالى ليدعونا جميعًا للعمل على تحقيق تقارب كبير بين مستويات المعيشة، وعلى المستوى العالمي، الأمر الذي يحمل الدول الغنية عبئًا كبيرًا لتحقيق هذا الهدف الكبير بحيث لايمكنها التنصل عنه إن شاءت تحقيق الاندماج الإنساني المطلوب.

سادسًا: إن حقوق الإنسان كما تقررها الوثيقة العالمية والوثائق الأخرى كالوثيقة الإسلامية تجب مراعاتها بشكل دقيق. إلا أن من الطبيعي التأكيد على أنه لا يحق لأية دولة أو مجموعة أن تحمل مفهومها عنها على الدول الأخرى أو تحاول الاستهانة بالعناصر الثقافية والدينية التي يحملها الآخرون بذريعة فهمها هي، بل يجب الوصول إلى تعريفات مشتركة مقبولة يمكن من خلالها تشخيص الحقيقة دونما أي تحميل، ولتكون الوثائق معتمدة عن بصيرة ودقة فلايمكن استغلالها بسهولة.

أما مؤتمر بكين الرابع للمرأة فرغم أنه كان يعلن استهدافه لتمكين المرأة و إسهامها في عملية التنمية رافعًا شعار (التساوي والتنمية والسلام) فإنه أكمل رسالة مؤتمر القاهرة التخريبية، بل أجهز على ما قدمناه هناك من إصلاحات، وراح من جديد يؤكد على مايسميه بالحقوق الجنسية وماهي من الواقع إلا محاولة تفكيك الروابط العائلية وحذف عنصر عملية التنمية .

* * *

الجانب الإيجابي:

إلا أن التأكيد على ضرورة الاعتناء بالنساء ولزوم سلامة الحمل في نفسه أمر سليم ويجب الاعتناء به نظرًا لأنه في كل عام:

- ٥٨٥/٠٠٠ امرأة تموت نتيجة عوارض الحمل.
- ٢٠٠/٠٠٠ امرأة تموت نتيجة عدم الاستفادة الصحيحة من موانع الحمل.
- ١٢٠ إلى ١٥٠ مليون امرأة لاتستطيع الحصول عليها إن أرادت.
- ٧٥ مليون امرأة تحمل حملا غير مرغوب فيه.
- ومن كل ١٧٥ مليون امرأة حامل تسقط ٤٥ مليون حملها.
- وهناك ٧٠/٠٠٠ امرأة تعاني من إسقاط غير مأمون للحمل وعدد غير معلوم من عوارض الإسقاط.
- وتموت مليون امرأة نتيجة التهابات المجاري التناسلية.
- وهناك ٣٣٣ مليون حالة مرضية تنتج من الأمراض المعدية عن طريق الاتصال الجنسي كما أنه يوجد في الكثير من الأقطار حوالي ٦٠٪ من النساء التي تحمل أمراض الاتصال الجنسي المعدية وهي مستعدة للتعرض لمختلف الأمراض.
- وفي سنة ١٩٩٦ ابتلي ٣ ملايين بفيروس الايدز وبلغ عدد المصابين ٤٠ مليونًا.
- وقد أهملت ٦٠ مليون بنت في الإحصاءات نتيجة الترجيح الجنسي للذكور على البنات.
- كما أن هناك مليوني بنت تعرض كل عام في سوق الدعارة.
- وتوجد ٦٠٠ مليون امرأة تعاني من الأمية في حين يعاني ٣٢٠

مليون من الرجال منها.

وغير ذلك[1] مما يتطلب بذل رعاية خاصة للأمر. والواقع أن تأمين هذا الجانب يعني مراعاة لحق الحياة الذي يؤكد عليه الإسلام كثيرًا ومن هنا نعتبر ما جاء في وثيقة القاهرة: الفصل، البند ٤:

«إن تقوية التساوي والعدالة الجنسية، واقتدار النساء، وحذف أنماط العنف في حقهنّ وتمتعهنّ بحق تنظيم حملهنّ من الأسس المبدئية لتنظيم السكان والتنمية» نعتبر ذلك أمرًا صحيحًا و إيجابيًا تمامًا.

ومن هنا فقد حاولت الجمهورية الإسلامية تنفيذ الجوانب الإيجابية فيه بالإضافة إلى أنها كانت قد خططت من قبل لتمكين المرأة من استرجاع حقوقها الطبيعية والمساهمة الفعالة في عملية البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك.

ومن البرامج التي نفذتها في مجال تحسين حالة العائلة وصحة النساء والأطفال.

١ – الاهتمام الصحي بأمور الولادة وتنفيذ برامج صحية متنوعة فهبطت نسبة الوفيات من المواليد في السنة من ٩٠ بالألف عام ١٩٧٨ إلى ٢٨ بالألف.

٢- تنفيذ برامج اجتماعية غير إجبارية لتنظيم النسل لتتحول نسبة

---

١ - يراجع مقال الدكتور ملك افضلي في مجلة (صحة العائلة) الإيرانية العدد ١٤ السنة الرابعة.

النمو في السكان من ٣/٢٪ إلى ١/٤٪ خلال مدة عشر سنين.

٣- إدغام خدمات تنظيم العائلة في نظام المراقبة الصحية للبلاد.

٤- تشجيع الشعب للإقبال على محو الأمية والتعلم ليصل الأمر إلى تمتع ٧٠٪ من النساء في سن الخامسة عشر فما بعد بنعمة القراءة والكتابة.

هذا وقد أدى تنفيذ هذا البرنامج إلى منح الجمهورية الإسلامية الإيرانية جائزة عام ١٩٩٨ لتنظيم السكان من قبل الأمم المتحدة[1]

هذا بالإضافة لبرامج تمكين المرأة من الحضور في مختلف الصعد الإعلامية والسياسية والاجتماعية والبرلمانية والاجتماعية والمدنية وغير ذلك.

٤- دور المنظمات الشعبية في تحقيق الأهداف الدولية

وقد خطت البشرية خطوات واسعة على طريق إيجاد تشكيلات دولية شاملة تعمل على حل مشاكلها، وتحقيق تفاهم ممكن بين أعضائها، وتحاول الوصول إلى طروحات عالمية تترك آثارها الإيجابية على المستوى العالمي.

وهكذا تم إنشاء الأمم المتحدة كأوسع منظمة دولية بمالها من منظمات فرعية في مختلف المجالات الثقافية والاقتصادية،

١- المصدر نفسه العدد ١٣.

والصحية، والتجارية وغيرها.

كما تم إنشاء حركة عدم الانحياز في مجال أضيق، ومنظمة المؤتمر الإسلامي في إطار العالم الإسلامي.

وهناك منظمات وتجمعات دولية كبرى أخرى لها أثرها الكبير في المسيرة.

إلا أن أكثر المنظمات الدولية مازالت مبتلاة بنقاط كبرى تمنعها من تحقيق أهدافها الإنسانية ويمكننا أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ـ إن قرارات هذه المنظمات إنما تحقق في أحسن الحالات مصالح الحكومات وتوجهاتها، ولا ضمانة فيها لتحقيق أهداف الجماهير. على أنها في الواقع إنما تحقق مصالح القوى المتحكمة في هذه المنظمات، إن لم نقل إنها إنما تحقق مصالح القطب الواحد المتحكم اليوم فيها.

٢- إن واقع الحال المشاهد في هذه المنظمات يقضي بأنها في كثير من الأحيان تقع تحت تأثير اتجاهات معادية للإنسانية كالاتجاهات الصهيونية والاتجاهات المادية الإلحادية وغيرها الأمر الذي يعود بأعظم الخسائر على المسيرة الإنسانية.

٣- كما أن التأمل في قراراتها يكشف لنا أحيانًا عن رفع هذه المنظمات شعارات كاذبة دون أن يكون وراء الشعارات المرفوعة واقع مؤثر. وذلك كما في قرارات حقوق الإنسان، ومحاربة العنصرية، والدفاع عن حقوق المرأة، وتنظيم عملية التنمية

الاجتماعية وغيرها . في حين أننا نجدها في هذا المجال تكيل بمكاييل متعددة حسبما تقتضيه المصالح الضيقة. على أن القرارات الحقيقية تبقى حبرًا على ورق مالم تتفق مع مصالح القوى الكبرى. وغير ذلك من النقائص المشهودة.

ومن هنا ك فإننا نجد مجالاً واسعًا لقيام المنظمات غير الحكومية بالاشتراك في الاجتماعات الدولية والسعي للضغط على الجهات الرسمية لتتخذ القرارات الأكثر انسجامًا مع الأهداف المطلوبة.

إن مشاركة هذه المنظمات يمكنها أن تترك آثارًا إيجابية من جهات عديدة من قبيل مايلي:

١ـ لما كانت هذه المنظمات الشعبية أقرب إلى واقع المشكلات الاجتماعية فإنها أكثر تفهمًا للحلول المطلوبة جماهيريًا. وهي بالتالي تستطيع أن تقرب القرارات من هذه الأهداف. وتستطيع أن تصل إلى كافة شرائح المجتمع المدني وطبقاته.

٢ـ ولما كانت هذه المنظمات غير الحكومية حرة في تحليلاتها وغير مقيدة بالقيود الرسمية فإنها تستطيع أن تصل إلى الحل الواقعي وتطرح ذلك بقوة أمام المحافل الدولية.

٣- على أن حضور هذه المنظمات يشكل تواصلاً جماهيريًا جيدًا قد يشكل رأيًا عامًا دوليًا لا تستطيع معه الجهات الرسمية إلا الاستجابة لمقتضيات هذا الرأي العام، مما يمنحها روحًا جماهيرية و إقدامًا على خطوات أكثر واقعية. في مجال تحقيق العدالة

الاجتماعية، والتوزيع العادل، واحترام البيئة.

٤ـ وتساهم هذه المنظمات في تنظيم العلاقة بين التنمية والدولة إذ توحّد الطاقات وتكمل النشاطات الخيرية والصحية والترفيهية والمهنية وغيرها فهي إذن أبنية اجتماعية وسطية.

٥- وتؤمن أيضًا بيئة منظمة للعمل الإنساني غير الربحي والتطوعي وبكلفة قليلة.

٦- وتتنامى مع مثيلاتها في مختلف الدول لتشكل تيارًا عالميًا يطرح مختلف القضايا.

شهر صفر هو شهر زينب بنت علي(ع).. هذه المرأة التي سجلت في التاريخ مواقف ملحمية في الثبات على المبدأ، والصمود أمام التحديات، وقيادة مسيرة الأمة نحو العزّة والكرامة والحياة.

هذه المرأة بعثت بعد استشهاد أخيها الحسين في المجتمع الإسلامي هزّة تواصلت حتى القضاء على حكم الظالمين.

إنّها حملت مسؤولية إيقاظ الأمة بعد واقعة كربلاء، وأدتها أفضل أداء.

التجزئة الطائفية
حقيقتها وعواملها

العالم الإسلامي يرث تجزئة طائفية إلى سنة وشيعة، وهذه التجزئة بدأت في القرن الأول الهجري وتعمقت واتسعت على مر التاريخ، وتحولت إلى اختلاف بعضه يعود إلى اختلاف في الرؤية إلى أحداث تاريخية وبعضه يعود إلى خلاف في بعض أصول الدين وفروعه. ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لهان، لأنه سيكون خلافًا علميًا يتناوله العلماء والمتخصصون بالنقاش، وقد يتفقون في النهاية أو يختلفون، وهذا هو الشأن في كل حقول العلم والمعرفة، ولكن المسألة تتعدى الإطار العلمي لتأخذ على الصعيد الشعبي طابعًا نفسيًا عشائريًا، فثمّة العشيرة الشيعية والعشيرة السنية، والانتماء حينئذ لا يكون قائمًا على أساس فكر وعقيدة قدر ما يكون مستمدًا من حالة نفسية وانتماء طائفي. عندئذ لا تعالج الحالة بالنقاش الفكري والعلمي والمعرفي فقط، بل تحتاج إلى علاج نفسي أيضًا. وأعتقد أن الإيرانيين والعرب أقدر من غيرهم ـ لما سأذكره ـ على معالجة الموقف.

لابد من أن أذكر أولاً أن بعض الدراسات القومية المتعصبة إيرانية كانت أو عربية، ذهبت إلى أن نشأة التشيع إيرانية. من قال ذلك من العرب قصد به الإساءة إلى التشيع باعتباره ذا نشأة بعيدة

عن جو الرسالة وأصحابها، ومن ذهب إلى ذلك من الإيرانيين استهدف به الإشادة بالروح القومية الإيرانية التي تحايلت فحافظت على نفسها وقوتها ووجودها في إطار ديني صنعه الإيرانيون على نهج الثقافة الساسانية واتخذ صفة التشيع[1]. ومنهم من قال إن ولاء الإيرانيين لآل البيت إما كان بسبب انتماء علي بن الحسين نسبيًا إلى الإيرانيين، إذ إن أمه أميرة إيرانية هي شهربانو بنت آخر الملوك الساسانيين يزدجرد[2]. ليس هنا موضع إجابة تفصيلية عن هذه الادعاءات، بل نشير إليها فقط بقدر ما يوضح أن الانقسام المذهبي لم يكن ذا طابع قومي.

أوّلاً - إن الشواهد التاريخية الكثيرة تدل على أن إقبال الإيرانيين على الإسلام كان تدريجيًا وعن رضا وقناعة منهم، ولم يكن بحد السيف والإجبار كي يضطروا إلى التحايل على الدين[3].

ثانيًا - إن آخر الأكاسرة الإيرانيين يزدجرد فرّ مِنْ عرشه منتقلاً بين المدن الإيرانية فلم يؤوه أحد، دلالة على رفض الشعب الإيراني هذا الحاكم الظالم[4].

---

١. انظر: مطهري، مصدر مذكور، ص١٤٠ وما بعدها.

٢. انظر: برويز صانعي *قانون وشخصيت* (طهران: منشورات جامعة طهران)، (د. ت.) ص١٧، وأدوارد براون، الترجمة الفارسية *لتاريخ أدبيات إيران*، ص١٩٥.

٣. انظر مطهري: مصدر مذكور، فصل الانتشار الهادىء المتدرج ص١٠٣ ومابعدها.

٤. الترجمة الفارسية لكتاب أرثر كريستنسن، *إيران في عهد الساسانيين*، ص٥٢٨.

ثالثًا - لو كان الإيرانيون مجبرين على إخفاء هويتهم خلال القرنين الأوّلين، فلماذا واصلوا خدماتهم للإسلام وتعميق هويتهم الإسلامية بعد ضعف الخلافة المركزية؟![1]

رابعًا - إن قضية زواج شهربانو من الحسين بن علي(ع) مشكوك فيها لا تسندها الحقائق التاريخية[2].

خامسًا - لو كان احترام الإيرانيين لآل البيت يعود إلى انتسابهم إلى العائلة الساسانية لكان من الأولى أن يتجه ولاؤهم إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وابنه يزيد بن الوليد لأن هذا الخليفة تزوج من أميرة إيرانية ولدت له يزيد هذا، ولاتجه ولاؤهم إلى عبيد الله بن زياد لأن أمّه إيرانية شيرازية هي «مرجانة» ولاتجه ولاؤهم ايضًا إلى الخلفاء العباسيين لأن أكثر أمهاتهم إيرانيات[3].

سادسًا - الأهم من كل ما تقدم أن أكثرية الإيرانيين الساحقة كانت قبل العصر الصفوي سنية، بل كانت فيها توجه ناصبي معاد لآل البيت، وهذا التوجه أبى أن يمتنع عن سبّ علي بعد أن منعه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز. وكبار العلماء الإيرانيين قبل العصر الصفوي من المفسرين والفقهاء والمحدثين والمتكلمين

١.الترجمة الفارسية لكتاب ارثر كريستنسن، *إيران في عهد الساسانيين*، ص٥٢٨.

٢.انظر: مطهري، مصدر مذكور، ص١٤٥ ومابعدها.

٣.انظر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، *تاريخ الخلفاء*.

والأدباء واللغويين كانوا على مذهب أهل السنة[1].

ومن الطريف في هذا المجال ان أهل مصر كانوا يتبعون فتوى فقيه إيراني هو الليث بن سعد، بينما جلّ الإيرانيين كانوا على مذهب فقيه عربي هو الشافعي، وكان بعض العلماء الإيرانيين يناصرون مذهب الشافعي العربي بشدة ويعارضون مذهب أبي حنيفة الإيراني بشدة مثل إمام الحرمين الجويني والغزالي[2].

ومن الطريف أيضًا في هذا المجال أن أبا حنيفة الإيراني يفتي بأن الإيرانية ليست كفوًا للعربية انطلاقًا من ترجيحه العنصر العربي، فلا يجوز أن يتزوج العربي من إيرانية! بينما مالك بن أنس العربي يرفض هذه الفتوى ويرى عدم وجود تفاضل بين الجنسين![3].

يطول بنا البحث لو أردنا إحصاء كل هذه المفارقات، لكننا أردنا أن نخلص إلى نتيجة هي أن مسألة التسنن والتشيع ما كانت ذات طابع قومي، لكنها اتخذت هذا الطابع بعد النزاع الصفوي ـ العثماني فأصبحت إيران في العصر الصفوي تمثل الدولة الشيعية، بينما الدولة العثمانية بما فيها البلدان العربية تمثل الجانب السني.

وكان للدول الطامعة في العالم الإسلامي دور في تغذية هذه التجزئة. التوجه القومي في إيران والعالم العربي، وهكذا

---

١. مطهري، مصدر مذكور، ص١٣٤.

٢. المصدر نفسه، ص١٣٤.

٣. المصدر نفسه، ص١٣٤.

الاستشراق، راح يبحث عن كل المفردات التاريخية التي تزيد الحساسيات الطائفية اضطرامًا، ثم إن الموجة العالمية السائدة اليوم لمواجهة ما يسمى بالخطر الإسلامي تتجه في ما تتجه إلى تمزيق العالم الإسلامي، وربما لا يمكن في القريب العاجل تبديل فكرة الصراع الحضاري إلى الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب، ولذلك فإن الاحتمال كبير في أن ينفّذ الغرب خطة التمزيق بشكل متقن سريع كما أوصى بذلك مفكروه من أمثال هانتنغتون[1].

وسواء عزونا الصراع الطائفي المشهود في العالم الإسلامي إلى عوامل داخلية أو أجنبية، فإن الواقع القائم يشهد في الإطار الطائفي مذابح في باكستان وأفغانستان، كما يشهد صراعًا بين المؤسسات الإسلامية العاملة في أفريقيا وشرق آسيا وفي آسيا الوسطى. والمعلومات تذكر أن هذا الصراع يترك أثارًا سيئة في المسلمين العائدين أخيرًا إلى حضيرة العالم الإسلامي، كما يترك آثارًا سيئة في أتباع الأديان المختلفة في شرق آسيا، فهناك طوائف دينية أرادت أن تعتنق الإسلام فلما وقفت أمام مفترق طريقين ورأت النزاع بين الفريقين آثرت البقاء على نحلتها حفظًا لوحدة طائفتها. من الممكن أن يتخذ الحوار الإيراني ـ العربي من مسألة التفاهم المذهبي محورًا من محاوره، وسواء توصل إلى نتيجة أم لم يتوصّل،

---

١. صدام الحضارات» مجلة المنطلق، العدد١٠٦ (شتاء ١٩٩٤)، نقلاً عن: شؤون الأوسط، العدد ٣٤ (تشرين الأول/أكتوبر١٩٩٤).

فإن الحوار المذهبي نفسه يدفع بقضية الاختلاف من الحالة النفسية العشائرية إلى حالة علمية فكرية.

ولقد كان للعرب والإيرانيين تجربة ناجحة في هذا المجال عبر «دار التقريب من المذاهب الإسلامية» في القاهرة[1]، وتجري المحاولات اليوم في إيران لمواصلة هذه التجربة عبر «المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية[2]» وعسى أن يكون الحوار العربي ـ الإيراني عبر المثقفين والجامعيين خطوة أخرى على طريق تجاوز سلبيات التمذهب في العالم الإسلامي.

---

١. عبد المجيد سليم، «بيان للمسلمين» مجلة رسالة الإسلام، العدد ١. والشيخ عبد المجيد سليم هو رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ووكيل جماعة التقريب الذي تولى مشيخة الأزهر في مابعد، خلال الأعوام(١٩٥٠ ـ١٩٥٢) ومن أعضاء الجماعة المصريين: الشيخ محمود شلتوت (شيخ الازهر ١٩٥٨ ـ١٩٦٤)، والشيخ محمود أبو زهرة، والشيخ محمد محمد المدني والشيخ عبد العزيز عيسى.

٢. مركز هذا المجمع طهران، ويضم في مجلسه الأعلى علماء ومفكرين من المذاهب الإسلامية المختلفة، ويتبنى الدراسات المقارنة وفق المذاهب الستة: الشافعي، والحنبلي، والحنفي والإمامي، والزيدي والأباضي.

الوجه الإنساني للإسلام

إن الحديث الذي يدور في الغرب اليوم عن الإسلام يجعل الإسلام والإرهاب غالبًا وجهين لعملة واحدة، ومسألة انتشار الإسلام بالسيف طرحها المستشرقون منذ أمد بعيد، وغذّتها عوامل عديدة، منها الروايات المكذوبة المنتشرة في التاريخ الإسلامي[1]، ومنها روح التبعية لأقاويل الاستشراق، ومنها أيضًا الروح القومية في البلدان الإسلامية غير العربية، المعادية عادة للفتح الإسلامي.

مثل هذه الأحاديث تغض الطرف عادة عن المجازر الوحشية التي تعرض لها المسلمون من قبل الحروب الصليبية وفي عمليات الغزو العسكري الأوروبي للعالم الإسلامي، ويتعرضون لها الآن في البوسنة والهرسك على يد الصرب المتعصبين، ولكنها تركز على عمليات المقاومة الفلسطينية واللبنانية وعلى بعض التصرفات التي تنسب إلى الإسلاميين هنا وهناك تجاه الجاليات الأوروبية.

وأود هنا أن أقول: إن الإعلام العربي بعد انتصار الثورة الإسلامية وخلال سنوات الحرب الإيرانية ـ العراقية كان له دور كبير في تركيز فكرة لصق الإرهاب بالثورة الإسلامية الإيرانية. ولما كانت

١.ناقش مرتضى العسكري هذه الروايات وبين زيفها وأعتبرها من مختلقات سيف بن عمر، انظر كتاب *عبد الله بن سبأ*، ج٢ .

هـذه الثـورة في أنظـار المؤيـدين والمعارضـين تعتبـر أهـم مكاسـب الصحوة في العالم الإسلامي فإن لاصقة الإرهاب قد انطبعت على كـل الصـحوة الإسـلامية، وأصـبحت هنـاك قناعـة عنـد بعـض القطاعات الداخلية بالتوأمة بين الإرهاب والتحرك الإسلامي. ومن المفارقات العجيبة أن هذه القناعة تركت في هذه القطاعات أثرين متفاوتين:

الأول: التخوف من الصحوة الإسلامية ورموزها واعتبارها عناصر خطرة مخيفة.

الثـاني: تبنّـي بعـض المجموعـات الصـغيرة العمليـات الإرهابيـة لتحقيـق أهـدافها ظانـة أنهـا تسـير علـى خطـى الثـورة الإسـلامية في إيران!! ويستغرب هؤلاء حين يقال لهم إن الثورة الإسلامية لم تتبن العمليات المسلحة أبدًا، بل إن الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه) أبعد عن الحركة كل الذين كانوا يمارسون العمل المسلح، وتبنى التحرك الجماهيري السلمي، وأمر حتى آخر لحظة أن يقابل رصاص الجنود برش الزهور، وكان شعاره دائمًا أن الدم سينتصر على السيف.

يسـتغرب هـؤلاء لأن الاعـلام لقـنهم لسـنوات عديـدة أن الثـورة الإسلامية انتصرت وتواصلت عبر مجازر دموية. ولاشك أن موجة توأمة الإرهاب والإسلام وراءها هدف استراتيجي هو تمهيد الجو لقمع الهوية الإسلامية وسحق كرامة المسلمين، فليس من المعقول أبدًا أن يكـون محركـو هـذه الموجـة واهمـين، بـل إنهـم عمومًـا يعـون مـا

يقولون. ويبدو من أقوالهم بوضوح تركيزهم على إثارة الرأي العام الأوروبي ضد المسلمين، نظير ما يقوله روفيل في كتابه *انتعاش الديمقراطية*، إذ جاء فيه «لايمكن ان نصف بالسماحة ديانة يتساوى فيها الاختلاف مع الإعدام... إن الإسلام هو مصدر تسعة أعشار الإرهاب العالمي الرسمي» ثم يضيف: «هل يتعين علينا أن نحرس مكاتبنا ومسارحنا ومتاحفنا من هذا التعصب الذي يريد فرض الرقابة على ثقافتنا مع مفعول رجعي»[1]، ويبدو منها أيضًا إثارة ما في ذهن الأوروبيين من صورة الإرهاب الداخلي الذي عانوه في تاريخهم الحديث واستثماره لتعبئتهم ضد الإسلام. فقد جاء في مقال كلير هولينغورث، الصحافية البريطانية المتخصصة بالشؤون العسكرية تحت عنوان: «مذهب تسلّطي آخر يحاول التسلل إلى الغرب» قولها: «الأصولية الإسلامية تصبح بسرعة التهديد الرئيسي لسلام العالم وأمنه، وأيضًا سببًا للاضطرابات المحلية، وعلى الصعد الوطنية من خلال الإرهاب أنّه خطر مشابه لخطر النازية والفاشية في الثلاثينيات، والشيوعية في الخمسينيات»[2].

إن الحوار الإيراني ـ العربي قادر أن يراجع حقيقة الإسلام في

---

١. جوزيف سماحة، *نهاية التاريخ وردود الفعل*، الاجتهاد، السنة ٤ العددان ١٥ ـ ١٦ (ربيع وصيف ١٩٩٢) ص٣٠٣ نقلاً عن: شؤون الأوسط العدد، ٣٤ (تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٩٤).

٢. فريد هاليدي «أيديولوجيا أم أيديولوجيات العداء للمسلمين» الحياة ١٩٩٤/٥/١١، نقلاً عن: شؤون الأوسط العدد ٣٤ (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤).

نصوصه وفي تاريخه ليكشف عن الجوانب الإنسانيّة من هذا الدين في ما يرتبط بقضايا الجهاد والفتح وقضية ممارسة القوة، والجانبان أقدر من غيرهما على ذلك لما بينهما من تراث مشترك وتاريخ مشترك يبدأ من إسلام الإيرانيين في اليمن عن طريق الدعوة بالكلمة ويتواصل عبر التعاون الإيراني ـ العربي في فتح إيران. كما أنهما لمكانتهما العالمية ومكانتهما في العالم الإسلامي، أقدر على تصحيح الصورة بشكل نظري وعملي في هذه القضية بالذات... قضية الإرهاب.

هناك جبهتان للبشرية على مرّ التاريخ:

جبهة إلهية وجبهة شيطانية.. في الجبهة الإلهية: سموّ وتكامل وحبّ وسلام ووئام واتحاد وتعاون وعزّة وكرامة.. وفي جبهة الشيطان: انحدار وهبوط ونزاع وقتل وتفرعن و إذلال.. والصراع بين الجبهتين بدأ منذ هابيل وقابيل وتواصل عبر جبهة الحسين(ع) ويزيد، وها هو اليوم يتجلّى بالمواجهة بين الصحوة الإسلامية والشيطان الأكبر أمريكا.

كنّا قرية كبيرة

إذا كانت مقوّمات القرية الكبيرة تتلخّص في انتقال المعلومات بسرعة بين أبنائها، فقد كنا كذلك حين كانت تجمعنا وحدة حضارية. تجد معلومات تفصيلية عن شرق العالم الإسلامي في رحلة *ابن بطوطة* المغاربي وعن غرب العالم الإسلامي في رحلة *ناصر خسرو* المشرقي، جناحان متباعدان في العالم، أحدهما في المغرب العربي، والآخر في خراسان يصبحان قريبين بفضل انتمائهما لمنظومة حضارية واحدة.

المتنبي في الشام ومصر والعراق يُنشد قصائده، فتصل في نفس الوقت إلى إصفهان، فيتلقّاها الأدباء والشعراء بل وعامة الناس بشوق بالغ، وتصبح أناشيد على ألسنتهم، ومادة لمجالس نقدهم، بل ويتناولها أكبر حاكم للمقاطعة وهو الوزير «الصاحب بن عباد» فيكتب رسالة نقدية على شعر المتنبي، وفي عصر المتنبي أيضًا تكتب في إيران عشرات الشروح وعشرات الكتب النقدية حول *ديوان المتنبي* بعضها في حياته، وبعضها بعد وفاته بقليل.

وهذا أبو الفرج الأصفهاني يجمع كلّ وثائق الأدب وأخبار الأدباء وأصوات الغناء منذ الجاهلية حتى عصره، ثم يأتي بعده الثعالبي

ليسوح في العالم ويجمع أخبار الأدب العربي في *يتيمته*، ويتابع العماد الأصفهاني هذا المشروع ليكتب في *خريدته* عن أدباء عصره ابتداء من الأندلس وشمال أفريقيا، ومرورًا بالحجاز والعراق، وانتهاء بأصفهان وشيراز وما وراء النهر.

لا يوجد اليوم في عصر الأنترنت مشروع شامل كهذا يوثق ساحة الأدب العربي في غرب العالم وشرقه.

وهكذا فعل أصحاب الطبقات الذين أرخوا للفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتكلمين والمتصوفة.

غير أن الأمر في منظومتنا الحضارية ما كان مقتصرًا على تواصل المعلومات، فقد كانت الروح الحضارية تصيّر من هذه المعلومات حركة حضارية في جميع مجالات المعرفة، وتعمل على استثمار هذه المعلومات في حقل التطوير الشامل النظري والعملي. ولهذا نشهد وحدة تطبع جميع العلوم والفنون في العالم الإسلامي القديم.

وأهم من هذا وذاك نشهد مظاهر القرية الكبيرة في روح المواساة والتعاطف التي كانت قائمة بين الأفراد والجماعات في تلك القرية الواحدة. ولو استثنينا روح الاستئثار والجشع والطمع التي كانت مسيطرة على بعض الحكام والولاة، فإن روح الإيثار والمواساة كانت هي العامة بين الناس، وروح البذل والعطاء وتقديم النفس والنفيس كانت هي السائدة في المجتمعات الإسلامية حين ينزل بها خطب أو تحل بها غاشية من غواشي الدهر أو يداهمها عدوّ معتد.

ثورة الاتصالات
على طريق العطاء

يمكن استثمار ثورة الاتصالات في إحياء روح العزّة عن طريق إيجاد مواقع واستحداث برامج بشأن «العزّة» في المفهوم الإسلامي. وأرى أن هذا المفهوم الهام غائبٌ في تعامل المسلمين ومواقفهم، مع أنه أصل من أصول الدين، ورعايته من أهم واجبات الإنسان المسلم، فلا نرى في سلوك الأفراد والجماعات المسلمة اهتمامًا برعاية عزّة الإنسان المسلم التي أكد عليها الإسلام منذ أن تنعقد نطفة الإنسان في رحم أمه، فللجنين كرامته، وللطفل كرامته، وللشاب كرامته، وللشيخ كرامته، وللمعلم وللحاكم، وللمحكوم.. بل ولجسد الميت كرامته.. بل وحتى لغير المسلم الذي يعيش في كنف الأمة الإسلامية كرامته ...

وللإنسان بما هو إنسان كرامته.. ولمراعاة هذه الكرامة أصول وواجبات صارمة.. حتى أن مراعاة واجبات كرامة الإنسان أهم من مراعاة كرامة الكعبة !!

هذا التكريم نراه أيضًا في عقيدة التوحيد التي تطرح اليوم مع الأسف غالبًا بشكل جدل جاف، بل وبشكل تجريح يصادر عزّة المسلمين، بينما التوحيد يتركز على الارتباط بالعزيز القدير كي

يحسّ الإنسان بالعزّة في كنفه، ولا يبتغي عزّة عند سواه:

﴿من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعًا﴾ (فاطر/ ١٠).

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للّهِ جَمِيعًا ﴾(النساء/ ١٣٩).

لابد من استثارة المنهج الإسلامي في صيانة العزّة وتعميق هذا المنهج، وعرضه بتفاصيله في مجال الأصول والفروع ومقارنته بواقعنا، كي يعود هذا الأصل المنسي ولو على الصعيد النظري إلى الأذهان كمقدمة لتحقيقه على أرض الواقع.

• ثورة الاتصالات توفّر لنا فرصة عرض نهضتنا الحضارية في القرون الأولى على الجيل المسلم، وما سجّله العلماء المسلمون من تقدم في جميع مجالات المعرفة، وما كتبه الغربيون عن هذه النهضة، وتأثيرها على النهضة الأوربية الحديثة، وذلك ما يستثير روح الاعتزاز بالانتماء الحضاري لدى الجيل المسلم، ويشكل حافزًا على تفجير الطاقات الكامنة فيه.

• شبكات الاتصال توفّر المجال اللازم لكي يطلع الجيل المسلم على كلّ ما في العالم الإسلامي من طاقات علمية ومن ابتكارات واكتشافات واختراعات، وهي بمجموعها ليست قليلة، وتثبت أن الأمة الإسلامية بإمكانها مواكبة التطور التقني في العالم إذا توفّرت الظروف المناسبة لذلك، كما أن هذه المعلومات يمكن أن تضيف لها ما تنتجه العقول الإسلامية في مختبرات الغرب ومعامله ومصانعه.. هذه الأدمغة التي لم تجد من يستفيد منها في العالم

الإسلامي فذهبت لخدمة التطور التقني الغربي، والاطلاع على ذلك كلّه يفجّر روح العزّة في نفوس الجيل، ولي في ذلك تجربة من خلال أحاديثي عن التطور الفني والتقني في إيران لإخواني العرب.

• شبكات الاتصال بإمكانها أن تزيل الحواجز اللغوية والحدودية والسياسية بين مجموعة العالم الإسلامي، وتعمّق لدى المسلم الشعور بالانتماء إلى الأمة الإسلامية، وتوجد «التعارف» بين الشعوب وبين العلماء والمثقفين والمفكرين والفنانين والأدباء، وهذا التعارف يؤدي حتمًا إلى تفاعل إيجابي مثمر لاشتراك الجذور ويفجّر روح الإبداع والتطوير في جميع المجالات.

• سرعة الاتصال يمكن أن تفتح أمام الدعاة المسلمين آفاق التعرف على العصر بتياراته وأفكاره، فتتسع نظرتهم ويتعمق فكرهم، ويقترب خطابهم من روح العصر، ومن هنا يستطيعون مخاطبة الجيل المسلم، بل والعالم عامة بلغة العصر، ووفق ما يتطلبه الواقع المعاصر وما يطرحه من أسئلة واحتياجات.

• سرعة الاتصال لا تساعد على «المعاصرة» فحسب، بل تفتح أيضًا آفاق التراث بأوسع أبوابه من أجل «التأصيل». لقد كان العلماء يجوبون الأرض للحصول على معلومة جديدة ترتبط بنص منقول أو معقول لتأصيل فكرهم ورسالتهم. وعملية التأصيل تيسرت للعلماء بعد أن أصبح الباحث قادرًا أن يطّلع على أمهات المصادر في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والكلام وعلوم الإسلام الأخرى من خلال أقراص على الحاسوب أو مواقع على

شبكات الاتصال، مع مختلف التسهيلات في البحث والعثور على المطلوب.

ومما لا شك فيه أن الجمع بين الأصالة والمعاصرة يشكل واحدًا من أكبر التحديات التي تواجه مسيرة المسلمين نحو تحقيق عزّتهم. فطالما سقط أصحاب الأصالة في الجمود وطالما سقط أصحاب المعاصرة في التبعية والالتقاط، وكلا الفريقين يسيئان إلى عزّة المسلمين في الشعور والمكانة العالمية.

• يشهد العالم الإسلامي اختلافات بعضها موروث من عصور التاريخ، وبعضها ناتج عن المواقف المختلفة تجاه القضايا المعاصرة. وكثير من المواقف العنيفة المتصلبة بين الفرقاء ناتجة عن عدم معرفة كل فريق بتفاصيل ما عند الفريق الآخر، وكثير من الصراعات في العالم الإسلامي ناتج عن جهل ووهم، وتُهم. وشبكات الاتصال السريع قادرة على أن تجعل المختلفين يفهم بعضهم بعضًا مباشرة، وقادرة على أن تفتح بينهم صفحة حوار هادئ بنّاء، انطلاقًا من مبدأ حتمية الاختلاف بين الآراء، وضرورة عدم تحول الاختلاف إلى خلاف ونزاع، وبذلك نصون المسيرة من الفشل وذهاب الريح، ومصادرة العزّة.

• بإمكان شبكات الاتصال السريع أن تؤسس مرجعية فكرية واحدة للمسلمين تكون أساسًا لمعرفة التوجه الإسلامي العلمي الصحيح، وبذلك تخلّص المسلمين من الاجتهادات المنحرفة الجاهلة التي تظهر أحيانًا على شكل اجتهادات الخوارج الذين

يبيحون سفك دماء المسلمين الأبرياء، أو على شكل تيارات منحرفة تحرّم الجهاد وتحثّ على القعود والاستسلام أمام المعتدين، أو بصورة دعوة لعزل الدين عن الحياة، أو بشكل تفسيرات متعسّفة للقرآن والتراث تخلق التشكيك والبلبلة في الأذهان.

وطالما كانت هذه الاجتهادات الجاهلة عاملاً على إذلال المسلمين داخليًا وعالميًا.

وحدة المرجعية الفكرية هذه لا تعني طبعًا وضع الإسلام والفكر الإسلامي في قالب واحد، وفي تفسير واحد لا يقبل التعددية، ولكن تعني وضع الإطار العام للتعددية المقبولة القائمة على أساس فهم علمي صحيح، وإبعاد الفهم القائم على أساس الجهل والأغراض والأهواء البعيدة عن الأساليب العلمية.

• شبكات الاتصال قادرة أيضًا أن تكشف للمسلمين عامة ما يحيط بهم من تحديات، وما يدبّر لهم من مؤامرات، وما ينزل بهم من ظلم وما ترتكب بمقدساتهم من انتهاكات، وما تتعرض له ثرواتهم من نهب وسلب وبذلك تضعهم أمام الأخطار والتحديات، وتخلق لديهم شعورًا مشتركًا بضرورة الدفاع والمقاومة، وهذا الإحساس المشترك يستثير الحياة في النفوس، ويدفع لتحقيق الانتصار في ميادين المواجهة، وبالتالي إلى الإحساس بعزّة الأمة الإسلامية.

• تستطيع شبكات الاتصال السريع أن تفتح أمام الجيل المسلم

نافذة يطلّ منها على الغرب بشكل واع بعيد عن الافراط والانبهار، والتفريط والانزواء، وبذلك يتعرّف المسلمون على ما في الغرب من نقاط ضعف ونقاط قوّة. وتبعدهم عن الإحساس بالدونية تجاه الحضارة الغالبة، وعن التبعية العمياء لها. وتفرّق بين الحضارة والمدنية، وتخلق فيهم بدل الانفعال روحًا فاعلة تعرف ما يجب أن تأخذ وما يجب أن تترك.

هذه وأمثالها من إيجابيات شبكات الاتصال السريع، ولكن هذه الإيجابيات لايمكن أن تتحقق إلاّ إذا كان وراءها عزم إسلامي جماعي على تحقيق العزّة لأمتنا. ثمّة مبادرات فردية أو مؤسساتية نحو هذا التوجّه الحضاري في الاستفادة من ثورة الاتصالات، غير أن المطلوب هو عمل على مستوى عظمة الأمة الإسلامية وعلى مستوى التحديات، وعلى مستوى مستقبل الإسلام في العالم. ونرجو أن يكون ذلك على رأس اهتمامات منظمة المؤتمر الإسلامي.

سلبيات شبكات الاتصالات

سلبيات هذه الشبكات تتلخص في ضعفنا في استخدامها تقنيةً وهمةً، وقوةِ الآخرين أيضًا تقنيةً وهمةً وتنسيقًا وتنظيمًا وتعاونًا.

وتجاوز هذه السلبيات يتطلب عزمًا على مستوى الأفراد

والمؤسسات وهو موجود إلى حدّ لا بأس به، ويتطلب عزمًا على مستوى الحكومات ـ وهو الأهم ـ ونأمل أن يتحقق ولو بأشواط بعد نهضة الشعوب.

أهم مظاهر السلبيات

١ ـ تدفق المعلومات من جانب واحد، فالعالم الإسلامي يكاد أن يكون متلقيًا لضعف ما يرسله تجاه ما يتلقاه، وعدم التكافؤ هذا يعمّق الشعور بالهزيمة، ويسخّر العقول والنفوس لما يخطط له الأقوياء من أجل السيطرة على الضعفاء، ناهيك عمّا يحمله هذا التدفق من معلومات خاطئة وتشويهات و إساءات للإسلام والمسلمين. ولا بد من السعي نحو الارتفاع إلى مستوى مخاطبة الأمة بل ومخاطبة العالم عن طريق هذه الشبكات لخلق نوع من الندّية في مجال إرسال المعلومات.

٢ ـ ثمة تحرك سريع ومشهود لاستثمار هذه الشبكات من أجل تعميق التفرقة المذهبية والطائفية بين المسلمين. ومن الممكن جدًا أن يكون وراء هذه الحركة دوائر مشبوهة مرتبطة بالقوى المتربصة بالمسلمين. ومن الممكن أن يكون وراءها روح التعصب والجهل وضيق النظر الموجود بين فئاتٍ من المسلمين.

خطاب التقريب بين المذاهب الإسلامية يكاد أن يكون معدومًا على الشبكات، وهو خطاب له رصيد علمي وضرورة دينية وضرورة يفرضها واقع المسلمين، لكنه غائب تقريبًا مع الأسف، والبارز هو

التراشق المذهبي المؤسف بين مواقع سنية ومواقع شيعية على الإنترنت، وكلها تتجه نحو استثارة الحساسيات التاريخية، واستعداء المسلمين تجاه بعضهم، وتفرقة الصفوف، ونسيان الأهداف الكبرى، وبالتالي تعميق حالة الدونية أو الذل بين المسلمين.

٣ ـ ثمة خلافات في الحدود أو المصالح أو الرؤى بين البلدان الإسلامية، كثير منها مفتعل موروث من عصر الاستعمار ومعاهدات التقسيم. هذه الخلافات يمكن أن تؤثر سلبًا على الإحساس بالانتماء الحضاري إلى الأمة وتكرّس الإقليمية والنظرات الضيقة وتثير النزاعات والحروب إن لم تعالج في إطار الأسرة الواحدة ووفق أسلوب متعقل يقطع الطريق على الباحثين عن الثغرات ونقاط الضعف.

ومن المؤسف أن هذه الخلافات وجدت لها مواقع على شبكات الاتصال من شأنها أن تكرّس الخلاف وتؤجّج الصراع، وتعكس انطباعًا غير حضاري عن عالمنا الإسلامي إلى العالم يسيء إلى كرامة الأمة.

٤ ـ لشيوع مواقع الجنس الفاضح على الإنترنت أصبحت هذه الشبكة مقرونة في ذهن الكثيرين بالدعارة والإثارة الجنسية.

ولدي وثائق كثيرة لا ترقى إلى حدّ القطع واليقين تدل على:

أولاً ـ أن وراء هذه الموجة الصارمة من إشاعة شبكات الدعارة والإثارة الجنسية يهود صهاينة هدفهم استحمار الشعوب وإغراقها

في الشهوات وأمراض الجنس، و إبعادها عن كرامتها الإنسانية وشخصيتها الرسالية، وهي مسألة تتطلب دراسات ميدانية ومتابعة جادّة لمعرفة أساليب الصهيونية في السيطرة على العالم.

ثانيًا ـ أن أكثر زبائن هذه الموجة هم من الشعوب التي يهبط عندها مستوى الإحساس بالعزّة والكرامة. وهي غالبًا شعوب ما يسمى بالعالم الثالث، فاستفحال الشهوات مقرون دائمًا بالشعور بالذلّ والدونية، وثمة نصّ في تراثنا عن الإمام علي عليه السلام يوضح هذه الحقيقة حيث يقول: «**من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته**»، فالشهوات تأخذ مكانها الطبيعي في نفس الإنسان الكريم، أما الذليل فتطغى فيه الشهوات المادية، كأنه يريد بذلك أن يثبت وجوده المصادَر وشخصيته المهزوزة بهذه الممارسات.

من هنا فلا سبيل لتحصين أمتنا من هذه الموجة وأمثالها من الأمواج الهدامة التي تستهدف هويتنا وشخصيتنا إلاّ برفع مستوى الإحساس بالعزّة والكرامة لدى أبناء شعوبنا.

«القومي» و«الرسالي» في حركة الإمام الخميني

بدأ الإمام خطابه بالحديث عمّا يهدّد مصالح إيران القومية من قبل أمريكا والصهيونية، ودعا الشاه إلى التحرر من نير الإرادة الأجنبية والحفاظ على عزّة إيران وكرامتها. وهذا الخطاب حين يصدر من مرجع ديني فإنه يعني تسخير المشاعر القومية والوطنية في صالح المشروع الديني.

وبمرور الأيام دخل الإمام الراحل في مواجهة مباشرة هائلة سخّر فيها كل عواطف الجماهير أمام مثلث الشاه أمريكا إسرائيل.

كانت عظمة هذا الخطاب تتجلّى في قدرته على دفع القوى القومية العلمانية الإيرانية إلى الانزواء بعد أن تحولت نهضته إلى بركان للدفاع عن المصالح القومية لإيران تحت راية الإسلام. كما دفع اليسار إلى الانزواء بعد أن أصبح في طليعة الثوار المعادين للامبريالية الأمريكية في العالم.

كما أن تأكيده المستمر على القضية الفلسطينية وكأنها جزء من قضية إيران، وعلى الخطر الصهيوني وكأنه خطر يحدق بإيران قبل أن يهدد العالم العربي، جعل الصراع بين جبهتين: الإسلامية

التي تتحقق في ظلها عزّة إيران وكرامتها، وجبهة أمريكا والصهيونية التي تستهدف إذلال المسلمين والسيطرة على مقدراتهم و إهدار كراماتهم.

والواقع أن القضية الفلسطينية خدمت مشروع الإمام الخميني بقدر ما خدمها، فهي كانت مركز الثقل الذي يستند إليه الإمام في إحياء مشروعه الإسلامي الداعي إلى وحدة الأمة الإسلامية ووحدة قضاياها، وضرورة الوقوف صفًا واحدًا تجاه ما يواجهها من أخطار وتحديات. كما أنها أيضًا خدمت بشكل كبير مشروعه في مواجهة الفصل بين «القومي» و«الإسلامي» وجعلت قضية الإيرانيين والعرب واحدة هو التحدي الصهيوني.

من هنا نفهم سبب مواقف الشارع الإيراني من القضية الفلسطينية بعد انتصار الثورة الإسلامية[1]، ومن هنا نفهم أيضًا سبب الحساسية البالغة التي أبداها الشارع الإيراني تجاه أمريكا.

فالشارع الإيراني شُحن فكريًا ونفسيًا بضرورة مواجهة مثلث الشاه والصهيونية وأمريكا، وهذا الشحن تواصل بعد سقوط الشاه، واليوم نستطيع أن نفهم أكثر من أي وقت مضى سبب مواصلة الإمام لهذا الشحن، وسبب تحذيره المستمر من التنازل أمام التهديدات الأمريكية الصهيونية.

١- انظر أسماء بعض الأفلام والمسلسلات والمسرحيات الإيرانية حول فلسطين، وانظر بعض الطوابع الإيرانية في المناسبات الفلسطينية، وجانب من الاهتمام بالأدب الفلسطيني.

وهنا نشير إلى أن ارتباط مثلث الشاه ـ الصهيونية ـ أمريكا اتضح للإيرانيين بالوثائق بعد الثورة حين جمع الشباب الإيراني ما حصلوا على جذاذاته في السفارة الأمريكية ونشروه في مجلدات خاصة بعنوان: *محتلو القدس وأمريكا حامية محتلي القدس وفلسطين(١) وفلسطين (٢)*.

وحين يمتزج القومي مع الإسلامي في حركة مستقبلية يدخل كل الموروث الثقافي ليشكّل حوافز هذه الحركة ورموزها.

رغم كل المحاولات التي أرادت فصل إيران عن العالم العربي بشعارات الطائفية والقوميّة، فإن الإمام الخميني أحبط كلّ هذه المحاولات حين جعل القضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية في مقدمة اهتمامات الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وخلال ثمانية أعوام من الحرب المفروضة عبّأ الإمام الشعب الإيراني ليكون ساخطًا على أمريكا و إسرائيل لا غير.. لذلك لم يرتفع شعار ضد بلد سوى هذين: الموت لأمريكا الموت لإسرائيل.. وبقيت القضية الفلسطينية وكأنها جزء من الحرب الدفاعية التي يخوضها الشعب الإيراني.

الركود الحضاري والحراك الحضاري

المظاهر الفردية والاجتماعية

من مظاهر الركود الحضاري المحافظة على الوضع القائم، وهذه حالة نفسية تصيب كلّ المجتمعات الساكنة، لأنها تفقد الرؤية المستقبلية، فتحاول أن تتشبث بالوضع القائم ظنًا منها أنه يبلور كل عزّتها وكرامتها: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، والفكر الديني المصدوم بهذه الوقفة الحضارية يبّرر هذه الأوضاع القائمة، ويحوّلها إلى دين ويجعل منها خطوطًا حمراء لا يمكن تجاوزها، ومقدّسات لا يمكن التعرّض إليها ومناقشتها[1].

• قد تنبثق في هذا الجوّ المتخلّف حركة تريدُ إصلاح الواقع، لكنّ القليل من هذه الحركات تستطيع أن تشدّ نظرها إلى المستقبل، فتَركة هذه الحالة المتخلّفة تترك أثرها حتى على كثير من الإصلاحيين، فينهضون وأجفائهم ـ كما يقول مالك بن نبي ـ مثقلة بنوم عميق، فيبحثون عن مناهج الماضين في الإصلاح دون

١- يرى الشهيد مطهّري أن المجتمعات الراكدة حضاريًا تميل إلى احترام الساكن، ويمثّل لذلك بالقطار الذي يجتمع حوله الأطفال في محطة القطار، فينظرون إليه باحترام وهو ساكن، حتى إذا تحرّك رشقوه بالحجارة (انظر: مرتضى مطهّري، *إحياء الفكر في الإسلام*، ترجمة آذرشب). ولعل تقديس عامة الناس للعلماء الجامدين يحكي هذه الحالة أيضًا.

التفكير بالحاضر والمستقبل، وباسم الإصلاح والسلفية والعودة إلى نقاء عصر الرسالة الأول يكفّرون هذا وذاك، ويقدّمون وصفات للعلاج تزيد في الطين بلّة، وتعقّد ظاهرة التخلّف، وتفوّت الفرصة على دعاة الإصلاح الحقيقيين.

• في ظروف التخلّف الحضاري تضمر روح الحياة في المجتمع فتصبح أعضاؤه غير مترابطة عضويًا، لأن الترابط العضوي إنّما يكون في الجسد الحيّ الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

من هنا تسود حالة التمزّق في مجتمعات السكون الحضاري، ويسود الصراع العشائري، متخذًا صفة الطائفية تارة أو صفة الإقليمية أو القوميّة.. أو أي اسم آخر، المهم أن يكون هناك تمزّق يؤدي إلى حالة قهرية من الصراع والتراشق والقطيعة[1].

• ولعلّ أهم مايميّز المجتمعات الراكدة حضاريًا ـ فيما يرتبط بموضوعنا ـ هو موقفها من التيارات الوافدة عليه من الخارج، وهو موقف يتراوح بين الإفراط والتفريط. إما أن يكون الموقف هو الرفض الكامل لكل هذه التيارات جملة باعتبارها تتعارض مع الأسس القائمة في المجتمع، و إما الانبهار بهذه لتيارات والشعور

١- انظر العلاقة بين الركود الحضاري، وحالة التوقف عن الابداع والفرقة النفسية والتحزب الطائفي، مقال الدكتور حسن حنفي، *المشروع الحضاري الجديد*، مجلة الوحدة، الرباط، العدد ١٠٥، ص ١٠، مارس ١٩٩٤.

بالهزيمة تجاهها، والدعوة إلى الأخذ بها جملة باعتبارها الوسيلة الوحيدة للسير في ركب الحضارة![1]

من مظاهر المجتمعات المتحركة حضاريًا

وفي مقابل المظاهر التي ذكرناها للمجتمعات الساكنة فإن الأمر يتخذ في المجتمعات المتحضرة شكلاً آخر.

١- المجتمعات الحيّة تفكّر بحاضرها ومستقبلها دائمًا، ولا تنظر إلى الأمر بأنه ليس بالإمكان أحسن مما كان، بل ترى أن الحركة التكاملية نحو الله لانهاية لها، وهذه الحركة ليست جغرافية مكانية، بل هي حركة في جوهر الإنسان نحو التخلّق بأخلاق الله من عزّة وكرامة وقوة وعلم وجمال ورحمة، وترفض السكون. تتحرك باستمرار أفقيًا لاكتشاف المجاهيل على ظهر الأرض، وتتحرك عموديًا لتتعمق في ماوراء الظواهر الطبيعية والفكرية.

٢- الإصلاح في مثل هذه المجتمعات يتجه نحو إزالة الموانع عن طريق حركة المجتمع سواءًا اتخذت هذه الموانع صفة السلطة السياسية أو السلطة الدينية، وبذلك ينفتح الطريق أمام استمرار مسيرة البشرية نحو تحقيق أهدافها المنشودة. وأهمّ قاسم مشترك

١- انظر: يوسف القرضاوي، *الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط*، *القاهر*، دار التوزيع والنشر، صفحات ٧٣ و٧٤ و٤٦.

بين الإصلاحيين الحقيقيين هو إعادة روح «العزّة» التي فقدها الأفراد في ظروف معينة إلى المجتمع، ممهّدين بذلك لاستمرار المسيرة الحضارية[1].

٣- في المجتمعات الحيّة يسود الترابط العضوي بين الأعضاء وهذه ظاهرة كانت على أشدّها في أيام ازدهار مجموعتنا الحضارية الإسلامية، فالخراسانيون يهبّون لنصرة الحلبيين حين يداهمهم خطر، والمغاربة ينهضون لنصرة الأندلسيين، والعلماء الخراسانيون مرتبطون بمختلف تخصصاتهم بعلماء بغداد والشام والمغرب والأندلس. والشاعر ينشد قصائده في القاهرة فتصل في نفس الأيام إلى بلاد فارس، فتتداولها الألسنة، وتكتب الشروح والنقود. ومع عدم وجود حتى الحد الأدنى من وسائل الارتباط القائمة اليوم كان العالم الإسلامي يشكل بمجموعته الحضارية من أقصاه إلى أقصاه قرية كونية مترابطة فكريًا وعلميًا وعاطفيًا و إنسانيًا.[2] وهذا لا يعني انعدام التعدديات المذهبية والفكرية والعلمية، لكنها كانت تعدديات متعاونة ومتعاضدة، يعترف كل

١- لغة الإصلاحيين الحقيقيين تختلف، لكنها تجتمع عند حقيقة واحدة هي استعادة العزّة للإنسان، حين تتظافر الظروف السياسية او الاجتماعية أو الاقتصادية لإذلاله. واستعادة العزّة يعني استعادة الحياة واستعادة الحركة الحضارية.

٢- كان المتنبي ينشد أشعاره في القاهرة والشام وبغداد فتصل في زمانه إلى فارس، فيكتب عليها الصاحب بن عباد نقدًا، وتدور حولها ضجّة أدبية (المتنبي في إيران، فصل من كتاب: *العلاقات الثقافية الإيرانية العربية*، الدكتور محمد علي آذرشب، دمشق، ٢٠٠١، ص ١٠٩ ومابعدها).

منها بفضل الآخر، ويتتلمذ كل منها على الآخر، وتجلس جميعها في مجالس حوار علمي هادئ بنّاء رغم مابينها من اختلاف[1].

٤- أما الموقف من الآخر، فيقوم على قاعدة: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. الموقف هنا فاعل لا منفعل، يأخذ من الوافد مايراه صحيحًا فيهضمه في وجوده ويتمثّله في منظومته فيزداد قوة، دون أن يؤثر ذلك على هويته وشخصيته المستقلة. لقد انفتح العالم الإسلامي في نهضته على اليونان والفرس والهنود فأخذ من خزائنهم مازاده قوة على قوته، وأخذ الأوربيون في نهضتهم من المسلمين مايعترف به كل الباحثين.

كل الإحيائيين دعوا إلى العزّة والكرامة و إلى الوحدة والتآلف. فالجسد الحيّ هو الذي يستشعر الكرامة و:

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ

من هنا تفهم الشعار الحسيني العظيم:

"هيهات منا الذلّة"

١- انظر على سبيل المثال مجالس البرامكة، ومنهم يحيى بن خالد الذي كان يجتمع في مجلسه الإمامي والخارجي والمعتزلي و.. فيتباحثون في مختلف المسائل الكلامية (*مروج الذهب*، المسعودي، ج ٣، ص ٣٧٠ ومابعدها، ط ٢، قم، دار الهجرة ١٩٨٤م).

الموقف من الآخر
بين الأصوليين والحداثيين والمجددين

مفهوم الأصولية ـ إذا كان يعني العودة إلى الأصول التي اعتمد عليها المسلمون في عصر الرسالة الأول في حياتهم الفردية والاجتماعية ـ فذلك مما لا يجوز أن يرفضه مسلم مؤمن بكتاب الله وسنّة رسوله. وهذه الأصول هي التي أحيتهم وحركتهم على جميع ساحات الهدم والبناء، وجعلت منهم روّاد العلم والمعرفة والتحرير وعزّة الإنسان وكرامته.

لكنّ الأصولية في عالمنا الإسلامي المعاصر قدّمت (بعض أطيافها) صورة متعصّبة غير صحيحة عن الإسلام ألخصها نقلا عن واحد من أشهر دعاة الإسلام المعاصرين وهو الشيخ محمد الغزالي:

١ـ النظرة التقديسية لنظام الخلافة، حتى ولو أدّى ذلك إلى تأييد الاستبداد السياسي في تاريخنا الإسلامي وهذا مارفضه الشيخ الغزالي إذ يقول:

«قلت لصديقي يحدثني عن التاريخ الإسلامي: إسمع يا أخي إن الأمويين والعباسيين والعثمانيين لم يقدّموا لنا صورة صادقة للخلافة

الإسلامية، وتتفاوت نسبة الدمامة في الصورة التي قدموها تفاوتًا يسيرًا!..»[1].

٢- تضخيم الخلافات المذهبية، ونسيان مساحات الاتفاق، وهذا أدّى إلى ظهور انحرافات في سلوك بعض الجماعات والأفراد أوشك أن يضيّع الهدف الذي جاء من أجله الإسلام يقول الشيخ الغزالي:

«إن المتفق عليه كثير جدًا، وإن التشبث به وحده كاف للنجاة.. ولكن جماهير من الدهماء والأذكياء شغلتها للأسف الخلافات العارضة، ولم تحسن استثمار ما انعقد عليه الإجماع، وكادت تضيّع الإسلام ذاته بهذا العوج الفكري..»[2].

٣- التشبث بالنصوص لإثبات العقيدة، وهذه مسألة جرّت الويلات على المسلمين، ولاتزال تؤدي دورها المخرّب، فحين انحسرت موجة الاعتزال العقلية عن العالم الإسلامي راح المنظّرون يقدّمون العقيدة للمسلمين عن طريق الأخبار الظنية، ومنها أخبار الآحاد، «وقد كان لذلك أثر رديء في مسالك الأفراد والجماعات وخصوصًا العوام وأشباههم»[3].

ويرى الشيخ الغزالي: «إن هذه المرويّات (في مجال العقيدة) حبر على ورق عند رجال الإسلام مع ورودها في كتب السنن»[4].

١- الغزالي، محمد، *دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين*، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م. ص ١٠ - ١١.

٢- الغزالي، مصدر مذكور ص ٤٣ - ٤٧.

٣- الغزالي، مصدر مذكور، ص ٥٣.

٤- الغزالي، مصدر مذكور، ص ٥٨.

٤ـ عدم الانفتاح على الآخر، وهو ناتج عن تعصّب يرى صاحبه أنه وحده على حق والآخر على باطل. ويرى الشيخ الغزالي أن هذه الحالة لم تكن قائمة بين الفقهاء المجتهدين على مرّ العصور فهم، وإن اختلفت آراؤهم، يحترم بعضهم بعضًا، ويحترم حريته في مخالفته، وقد رأينا مالك بن أنس يرفض حمل الناس على مذهبه في كتاب *الموطأ*، ويقول: إن أصحاب رسول الله(ص) تفرّقوا في الامصار وقد يكون لديهم مافاته..»[1].

٥ـ الانشغال عن عظائم الأمور، وهذه حالة واضحة في طيف المتعصبين. يقول عنها الغزالي: «ولم أر أناسًا حبستهم الجزئيات وغلبتهم على رشدهم مثل صرعى التعصّب المذهبي عندنا...».

ثم يورد الشيخ الغزالي أمثلة من أولئك الذين نسوا مسؤولياتهم في الحياة وانشغلوا بالصغائر منها قوله: «سألني صيدلي عن حكم من أدرك الامام راكعًا ولم يقرأ الفاتحة، أتسقط الركعة عنه أم يعيدها؟

قلت: الجمهور على سقوط الركعة عنه، وهناك من يرى قضاءها، فاختر لنفسك مايحلو.

قال: أعرف ذلك، ولكن أريد مناقشة من يرى عدم قضاء الركعة!

قلت له: ماجدوى ذلك عليك، ولماذا تتكلف ما لا تحسن وتترك ما تحسن؟ قال: ما معنى ماتقول: قلت: إنك صيدلي، وجميع الأدوية

١- الغزالي، مصدر مذكور، ص ٦٧ - ٧٢.

في دكانك من صنع الصهيونيين أو الصليبيين أو الشيوعيين، فإذا تركت أنت وزملاؤك هذا الميدان، ميدان صناعة الدواء، واشتغلت باللغو، أفتحسب ذلك يرفعك عندالله وعندالناس؟ إنك للأسف تسهم في سقوط الأمة وتجعلها غير جديرة بالحياة.

قال: إنني أبحث في حكم شرعي ولا أشتغل باللهو.

قلت: الحكم الشرعي كما قرره أهل الذكر بين أمرين، خذ منهما ماشئت، ولا يجوز أن تحوّل الموضوع إلى لُبان يمضغه الفارغون. إن كل مايصرفك عن ميدان الدواء هو في حقيقته عبث أو عيب أو ذنب تؤاخذ به.

أما أن تؤلف رابطة عنوانها: «جماعة من يقضون الركعة إذا لم تقرأ الفاتحة» فهذا سخف. ما قيمة هذا الرأي أو ذاك حتى يُحشّى به عقول الناس»؟[1]

الحداثيون:

الحداثة أيضًا إذا كانت تعني ماقاله «كانْتْ» في كتابه *ما الأنوار*: هي تحرير العقل من الوصاية التاريخية التي فرضت عليه من الخارج، وأن شرط الحداثة هو الحريّة، وأهمّها حريّة العقل وحرية التفكير، كي يستطيع الإنسان أن يبني نهضته نحو الحضارة والحرية والمدنية والحداثة، فهي من صميم ماجاء به الإسلام. لأن جوهر دعوة الإسلام يقوم على نظرية الاستخلاف التي تستبطن

١- الغزالي، مصدر مذكور، ص ٧٧ - ٧٩.

كما قلنا عزّة الإنسان وكرامته، ولاعزّة ولا كرامة بدون حرية العقل وحرية التفكير.. وهي ظاهرة كانت مشهودة تمامًا في عصر ازدهارنا الحضاري[1].

أما الحداثيون في عالمنا الإسلامي اليوم فيتخذون مظاهر عديدة يجمعها الإصرار على القطيعة مع الدين ذلك لأن الغرب لم يدخل عصر التنوير إلاّ بهذه القطيعة!! يقول أحدهم: «إنه بعدما كان المسيحي حريصًا على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلاّ لعقله.. فأيديولوجية التنوير قد أقامت القطيعة الابستمولوجية (المعرفية) الكبرى، التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكويني (١٢٢٥ – ١٢٧٤) وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعدًا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته..» .

وعلى طريق هذه القطيعة تعرّض كل مقدّس ديني لدى الحداثيين للتشكيك:[2]

١ـ الذات الإلهية أصبحت عندهم هي «الأرض والخبز والحرية والعدل والعتاد والعدة وصرخات الألم وصيحات الفرح... والتوحيد

١- انظر عبدالحميد أبو سليمان، *أزمة العقل المسلم*، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ط ١٩٩٠، ص١٥.

٢- انظر إميل بولا: *الحرية*، منشورات سيرف، باريس، ١٩٨٧؛ ونصر حامد أبوزيد: *مفهوم النص*، ط القاهرة ١٩٩٠م؛ وعبدالمعطي حجازي في الأهرام بتاريخ ٢٠٠/١٠/١١، وأخبار الكتاب، العدد ٣٧ سبتمبر ٢٠٠٠، نقلاً عن الدكتور محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، مجلة ثقافتنا، العدد ٥، ٢٠٠٥م .

ليس توحيد الذات الإلهية كما هو الحال في علم الكلام الموروث، وإنما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة...».

٢ـ الأنبياء هم ظواهر إنسانية وثمرة لقوة «المخيلة» الإنسانية، وليس فيها إعجاز ولا مفارقة للواقع وقوانينه. فالأنبياء مثل الشعراء والمتصوفة مع فارق في درجة المخيلة.

٣ـ القرآن خطاب تاريخي لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا، وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص. فالقرآن تحول من لحظة نزوله من كونه (نصًا إلهيًا) وصار فهمًا (نصًا إنسانيًا) لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل.

٤ـ واللغة العربية هي لغة ميتة ودخيلة في رأي الحداثيين العرب وغير العرب.

٥- والتاريخ يجب أن تكون المحورية فيه لتاريخ أوربا وأبطال أوربا، ولابدّ من تزيين الساحات العربية بتماثيل الإسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٤ ق.م).

وأمثال هذه الأقاويل التي يجمعها عنوان الهزيمة النفسية أمام الغرب الغالب.

وقفة عند المتعصبين والحداثيين

ذكرنا أن المشكلة الأساسية في عالمنا الإسلامي هي غياب مفهوم «الاستخلاف» ويستبطن ذلك غياب مفهوم العزّة والمثل الأعلى الكبير، ويستبطن كذلك استفحال الذاتيات.

هذه الذاتيات تتخذ مظاهر عديدة. فهي في المجال السياسي تظهر عندنا في التهافت على الكراسي والمناصب مهما كلّف الثمن. وتظهر في المجال الفكري بالتشبث بالفكر الصدامي المتعارض مع سنن الحياة والفطرة سواء المتعصب منها المتنكر لسنة التطور، أو الحداثي الرافض لثوابت الكون والإنسان.

الشيخ الغزالي عند حديثه عن المتعصبين لا يفوته أن يشير إلى الحالة المرضية النفسية لهذا التعصب، وأنه ناتج عن الذاتية والأنانية يقول:

«والاغترار بالنفس أو الدوران حول الذات لايبدو في طلب الرئاسة بالأساليب القذرة وحسب، كلا، إنه يبدو في تنقّص رجل معروف، أو اعتناق رأي شاذ، أو المكابرة في حوار، أو ماشابه ذلك من مواقف لأناس يعملون في الميدان الديني أو الميدان المدني على السواء...»[1].

هذه إشارة هامة إلى دور الذاتية في المواقف المتطرفة، سواء كانت رافضة للواقع والمستقبل باسم الأصولية أو رافضة للماضي باسم الحداثة.

التجديديون

التجديد كان قائمًا على مرّ التاريخ الإسلامي، خاصة في عصر الحركة الحضارية، نرى ذلك التجديد في الفقه والأصول والتفسير

١- الغزالي، مصدر مذكور، ص ١٤١.

والحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية. الاجتهاد، وشيوع حديث ظهور المجددين على رأس كل قرن، من مظاهر هذا التجديد المستمر.

وكان من المفروض في عصر الركود الحضاري أن لا تظهر في العالم الإسلامي مشاريع تجديدية، غير أنّ الإسلام بما فيه من طاقات ذاتية يأبى على أتباعه الخضوع للوضع القائم، ويثير فيهم الهمة للإصلاح والتجديد، من هنا نرى قائمة المجددين في عصرنا غنية بالأسماء والمشاريع النظرية والعملية.

لقد كان على رأس المجددين في عصرنا السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني، وقد قدّم هو وتلميذه، محمد عبده مشروعًا للتجديد، خير من درسه الأستاذ محمدعمارة ألخّصه فيما يلي:[1]

١ـ نقد ورفض الجمود والتقليد: سواء أكان هذا التقليد للسلف وجمودًا على تراثهم، أم تقليد الغرب والجمود على الثقافة الحداثية للتغريب.

٢- التجديد الذي يؤدي إلى تحرير الفكر من القيود، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارف الدين إلى ينابيعها الأولى، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري، و إصلاح أساليب اللغة العربية، والتمييز بين ما

١- ملخص من مقال الدكتور عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية (مقال مذكور) ص ٤٧ - ٥٤.

للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

٣- الاصلاح بالإسلام، لا بالمشاريع الغربية على البيئة الإسلامية.

٤- الوسطية الإسلامية التي برئت من الغلو والإغراق في المادية، أو في الروحانية.

٥- العقلانية المؤمنة التي تجمع بين العقل والنقل.

٦- الوعي بسنن الله الكونية التي تحكم عوالم المخلوقات، وجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة.

٧- الدولة في الإسلام مدنية ـ إسلامية، لا كهنوتية ولا علمانية .

٨- الشورى، أي مشاركة الأمة في صنع القرارات.

٩- العدالة الاجتماعية التي تحقق التكافل الاجتماعي بين الأمة كلها.

١٠- إنصاف المرأة لتشارك الرجل في القيام بفرائض وتكاليف العمل العام.

في اعتقادي أن المشروع الإحيائي الذي ظهر مع التحوّل الإسلامي في إيران يعتبر من المشاريع النظرية والعملية التي غابت عن دراسة الدارسين بسبب الظروف السياسية الدولية والإقليمية الضاغطة ويستحق دراسة موضوعية بكل إيجابياته وسلبياته.

ومع كل هذه المشاريع التجديدية تبقى مظاهر الابتلاء باتجاهات الجمود والتخلف الفكري والجهل والتعصب، حتى تحين الفرصة للمسلمين كي يستعيدوا دورهم الحضاري على الساحة التاريخية، عندئذ تأخذ الثوابت مكانها المناسب ويتجه الجانب المتطوّر نحو كامل الأمة في جميع مجالاتها الحياتية.

التعاون التراثي

إيران تضم كنوزًا كبرى في التراث الإسلامي العربي، وأقول: «العربي» لأن جلّه مدون باللغة العربية، والمكتبات العربية تضم هي الأخرى كنوزًا تراثية. هذا غير آلاف المخطوطات في المكتبات العالمية.

وهذه الكنوز فيها كلّ مايفيدنا لأن نبني عليه حركتنا الحضارية. ولكن حركة إحياء التراث في منطقتنا الإسلامية ليست على المستوى المطلوب لأسباب أهمها:

١ـ روح الاستهانة بالذات، فكل ماهو أصيل لا يلقى عندنا اهتمامًا، أللهم إلا إذا اهتم بها الغرب، وأذكر أن العلامة الطباطبائي صاحب *تفسير الميزان* كان يقول: نحن لا نمجّد شخصياتنا العلمية إلا إذا مجدها الغرب. فابن سينا كان من ربوع وطننا، وكتبه كانت موجودة بين ظهرانينا، ولكن جامعاتنا لم تهتم به إلا بعد أن اهتم به الغربيون، فكأنهم قد اكتشفوه لنا، ونحن رحنا على أثرهم ندبّج المقالات ونقيم الندوات والمؤتمرات.

٢ـ عدم وجود المشروع الحضاري الذي يستطيع أن يستمد من التراث مقوماته، فمادام هذا المشروع غائبًا، ومادامت حركة أمتنا الحضارية متوقفة، فإننا لا نستطيع أن نستوعب التراث ونفيد منه.

لذلك ننظر إلى كتب التراث وكأنها «ألسنة الأموات» كما شاع في كلام المتغربين الإيرانيين. بينما ساهم هذا التراث بشكل جاد في صنع الحضارة الغربية، كما يمكن أن يكون أساسًا لنهضتنا الحضارية.

من هنا يمكن أن يكون بين العرب والإيرانيين توجه جديد إلى التراث، يحييه وفق منظور حضاري واضح. وعملية الاحياء إن كانت قائمة على وضوح الرؤية والنظرة المستقبلية فإنها تساهم إلى حد كبير في إزالة روح الهزيمة النفسية، كما تساهم في تجميع لبنات المشروع الحضاري للأمة الإسلامية.

وفي إيران توجد مؤسسات متخصصة بإحياء التراث في قم وطهران ومشهد. كما توجد مراكز إحياء التراث العربي في أكثر العواصم العربية، ويمكن أن يكون بينها تعاون وثيق في إطار بنّاء.

وهنا أسجل ملاحظة تبعث على الأسف هي أن مؤسسة إيرانية لإحياء التراث وجدت في المراكزالثقافية الفرنسية والألمانية اهتمامًا كبيرًا في التعاون المشترك على إحياء التراث الإسلامي أكثر مما وجدته من المراكز العربية.

ثم بودّي أن أسجل ملاحظة أخرى هي أن كتب التراث المطبوعة أصبحت من التحف التي يقتنيها الموسرون ليزينوا بها بيوتهم، ولذلك أسرع تجار الكتب إلى طباعة المخطوطات دونما تحقيق متقن، واكتفوا بالتجليد المذهب المزركش، فأساءوا إلى التراث بدل إحيائه.

وكم هو نافع لوقام مركز مشترك للمخطوطات بين العرب والإيرانيين يتحرى مظانّ التراث في كل مكتبات العالم، ويشرف بشكل دقيق على تحقيقه وفق معايير فنية، ويدرّب الشباب على العمل المتقن في مجال المخطوطات، ويدفع بذخائرنا إلى الدراسة والطباعة حسب أولويات الحاجة إليها درءًا للعشوائية القائمة في انتقاء المخطوط. ومن الممكن أن يبدأ تشكيل مثل هذا المركز بين إيران وأي بلد عرب آخر أولا، ليكون نواة لعمل إيراني ـ عربي موسع في المستقبل.

عشرات الآلاف من المخطوطات في مكتباتنا والمكتبات العالمية تشهد أن دائرتنا الحضارية الإسلامية كانت دائبة الحركة في تقديم ما تحتاجه البشرية من علوم في حقل الإنسان وفي حقل الكون والحياة.

هذه الكنوز تقول لنا: إن آباءكم جدّوا واجتهدوا لاعتلاء الأمة، ولتكون سبّاقة في المعرفة والعلم.. فما أنتم فاعلون؟ و

إن الفتى من يقول ها أنا ذا

ليس الفتى من يقول كان أبي

ظاهرة مالك بن نبي
نموذجًا لفكر التعارف الحضاري

مالك بن نبي (ت ١٩٧٤) من الظواهر الحضارية الفردية للإنسان المسلم الذي عاش في الغرب بوعي وانفتاح وعمق. وهو بذلك يعتبر من روّاد «التعارف» بين الشرق والغرب، وبالتالي من دعاة الاستئناف الحضاري، أو الاقلاع الحضاري على حدّ تعبيره.

ولو ألقينا نظرة على أفكار هذا الرجل لوجدناه بحق أبرز مفكر عربي عنى بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون، مستلهمًا فكره من التراث الإسلامي كما استلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين.

دراساته عالجت أمراض الأمة مع وصف أسباب نهضة المجتمعات، ووضع الاستعمار تحت المجهر، فحلّل نفسيته، ورصد أساليبه الخبيثة في السيطرة على الأمم المستضعفة، وخاصة المسلمين، ووضع للأمة الإسلامية معادلات وقوانين «الاقلاع الحضاري»[1].

١- د. ابراهيم رضا، مالك بن نبي وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة، مجلة «ثقافتنا» العدد ٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص ١٨٧.

في كتابه *شروط النهضة* الذي كتبه بالفرنسية وترجمه عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، يفتتح فصوله نشودة رمزية يعبّر فيها عن أهدافه ويبلور بسطورها خطابه، أثرنا نقلها في هذا المقال لما فيها من المجمع بين الجانب الشعوري لهذا الرجل وفكره يقول:

«أي صديقي:

- لقد حانت الساعة التي ينساب فيها شعاع الفجر الشاحب بين نجوم الشرق.
- وكل من سيستيقظ بدأ يتحرك وينتفض من خدر النوم وملابسه الرثة.
- ستشرق شمس المثالية على كفاحك الذي استأنفته، هنالك في السهل، حيث المدينة التي نامت منذ أمس مازالت مخدرة.
- ستحمل إشعاعات الصباح الجديد، ظِلَّ جهدك المبارك، في السهل الذي تبذر فيه، بعيدًا عن خطواتك.
- وسيحمل النسيم الذي يمر الآن البذور التي تنثرها يداك.. بعيدًا عن ظلك.
- ابذر يا أخي الزارع. من أجل أن تذهب بذورك بعيدًا عن حقلك، في الخطوط التي تتناءى عنك... في عمق المستقبل.
- ها هي بعض الأصوات تهتف. الأصوات التي أيقظتها خطواتك في المدينة، وأنت منقلب إلى كفاحك الصباحي. وهؤلاء الذين استيقظوا بدورهم، سيلتئم شملهم معك بعد حين.

- غنِّ! يا أخي الزارع! لكي تهدي بصوتك هذه الخطوات التي جاءت في عتمة الفجر، نحو الخط الذي يأتي من بعيد.
- وليدوِّ غناؤك البهيج. كما دوّى من قبل غناء الأنبياء، في فجر آخر، في الساعات التي ولدت فيها الحضارات.
- وليملأ غناؤك أسماع الدنيا، أعنف وأقوى من هذه الجوقات الصاخبة التي قامت هنالك.
- ها هم ينصبون الآن على باب المدينة التي تستيقظ، السوقَ وملاهيه، لكي يميلوا هؤلاء الذين جاءوا على إثرك، ويلهوهم عن ندائك.
- وها هم قد أقاموا المسارح والمنابر للمهرجين والبهلوانات، لكي تغطي الضجة على نبرات صوتك.
- وها هم قد أشعلوا المصابيح الكاذبة لكي يحجبوا ضوء النهار، ولكي يطمسوا بالظلام شبحك، في السهل الذي أنت ذاهب إليه.
- وها هم قد جمّلوا الأصنام ليلحقوا الهوان بالفكرة.
- ولكن شمس المثالية ستتابع دون تراجع، وستعلن قريبًا انتصار الفكرة، وانهيار الأصنام، كما حدث يوم تحطّم «هُبل» في الكعبة»[1].

بن نبي استوعب مناهج التفكير الأوربي، ومن هنا جاء مشروعه

١- مالك بن نبي، *شروط النهضة* / ١٩ - ٢١.

الحضاري وفق منهجية واضحة، وهو ضمن اهتمامه باستئناف الحركة الحضارية للأمة تناول بالتفصيل إسلامية المعرفة، واصلاح مناهج الفكر، ولذلك فإن مشروعه يبقى قادرًا على تقديم خطاب معاصر في الاستئناف الحضاري وعلى توجيه العاملين في استنهاض الأمة[1].

اهتمّ بالتجربة اليابانية التي انفتحت الانفتاح الواعي الفاعل على الغرب، فأخذت منه مواضع قوته دون أن تنفعل أو تذوب يقول: «فإذا كان اليابان قد بنى مجتمعًا متحضرًا؛ فهو قد دخل الأشياء من أبوابها، وطلب الأشياء كحجة، درس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاته، وليس بالنسبة لشهواته. فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية يدفع لها أمواله وأخلاقه، أما نحن فقد أخذنا منها كل رذيلة، وأحيانا نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة التي قدرها الله لنا»[2].

ويرى أن الطالب المسلم يذهب إلى الغرب، وهو لا يعرف كيف يتعامل معه، لذلك لا يذهب إلى منابع الحضارة بل إلى سلّة نفاياتها يقول:

«الواضح أن المشكلة التي تطرح نفسها لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية، بل بالطبيعة الخاصة بعلاقتنا بها. فالطالب المسلم الذي يتحلق بمدرستها هو بين نموذجين: الطالب المجد، والطالب السائح.

١- انظر: د. نصر عارف، مقال: هندسة البناء الحضاري عند مالك بن نبي، مجلة الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد ذي القعدة ١٤١٤/ ١٩٩٤.

٢- مالك بن نبي: *مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي*، ص ١٥٢

وكلا الطالبين (المجد والسائح) لا يذهبان إلى منابع الحضارة، بل إلى حيث تتفطر فيها أو تلقي فيها نفاياتها»[1] .

ظاهرة مالك بن نبي يمكن تلخيصها فيما يلي:

١.تشخيص ما تعانيه الأمة في ركودها الحضاري.

٢- الإيمان بأنّ الدين الطاقة القادرة على «أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة»[2] .

٣- استيعاب الفكر الغربي، ولذلك كان مشروعه يقوم على أساس منهجية واضحة.

٤- الكشف عن حقائق أنصاف المثقفين المهزومين أمام الغرب في عالمنا الإسلامي، وعن حقيقة الدجالين المتاجرين بالدين. والتحذير من الانبهار بالغرب وبيان الأسس التي يجب أن يقوم فيها تعاملنا مع الحضارة الغربية.

أهمّ مسؤوليات أمتنا الإسلامية اليوم استئناف مسيرتها الحضارية لإنتاج مشروع حضاري يتناسب مع ثقافتها ومع متطلبات الواقع الراهن.

١- المصدر نفسه، ص ١٥١

٢- مالك بن نبي ، *شروط النهضة* ، ص ٩٢ ومابعدها

ظاهـرة ميخائيل نعيمة

الالتزام بحضارة الشرق

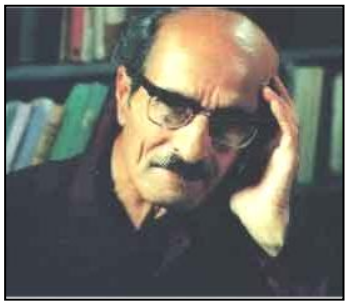

ميخائيــل نعيمــة وزمــلاؤه في

المهجر الأمريكي الشمالي والجنوبي يمثلون في معظمهم ظاهرة على غاية من الأهمية للمغتربين من عالمنا الإسلامي. على الرغم من الفتن الطائفية والسياسية التي اضطرتهم إلى الهجرة من بلدانهم، فإنهم لم يُعرضوا عن ثقافة بلدانهم، ولم يتنكّروا لها، بل ضلوا أوفياء للغة العربية والأدب العربي، بل أكثر من ذلك قدّموا إلى الغرب أدبًا صوفيًا عرفانيًا يدلّ على أنهم عرفوا ثغرات الحضارة الغربيّة، وعرفوا البلسم الذي يُعالج داءها، فكانت مدرستهم نموذجًا للالتزام بحضارة الشرق، رغم أن أكثرهم مسيحيون!!

وهذا الالتزام وقاهم من الانبهار بحضارة الغرب، كما أنهم شعروا بقوّة ما يستندون إليه من ثقافة، فراحوا يعرّفونها على الغرب. وفهموا الهزيمة التي يعيشها أبناء جلدتهم في العالم الإسلامي فراحوا يحذّرون الأمة من هذا الانبهار.

إنها ظاهرة تستحق الدراسة أن يقف ميخائيل نعيمة المسيحي (ابن هذه الدائرة الحضارية الإسلاميّة) سنة ١٩٣٢ أمام أبناء قريته «بسكنتا» بعد اغتراب دام عشرين عامًا ويخاطبهم قائلاً:

«منذ عشرين سنة أدرتُ وجهي إلى البحر (أي إلى الغرب)

وظهري إلى صنّين (جبل في القرية). واليوم صنين أمامي والبحر ورائي، وأنا بين الاثنين كأني في عالم جديد، وكأني ولدت ولادة ثانية».

«ما أبعَدَ السلامَ المخيّم في جبالكم عن الجلبَة المعسكرة في مدينة كمدينة نيويورك!.. فعلام تُصرّون على تزويج سلامكم من تلك الجَلَبة؟».

«سلامكم هو أنفاس العزّة القدسيّة المنبعثة من صخوركم وترابكم وأعشابكم. وتلك الجَلبَةُ هي تطاحُنُ المطامع والأهواء البشرية في سبيل الريال. والاثنان لا يتزاوجان ولن يتزاوجا. وليس أضلَّ ممّن يعتقدُ أنّ بإمكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام صنّين. فريال نيويورك نقاب كثيف يحجُبُ وجه الله. وصنّين عرشٌ من طهارة يبدو عليه وجه الله سافرًا. مَن اختار منكم ريالَ المهجر وكلَّ ما في قلبه من جَلَبة لا تستكنُّ، فليطلّق سلام صنّين».

«إنكم تفاخرون كل المفاخرة بتاريخ بلادكم فتدعونها «مهد الأنبياء» فما نفعكم من هذا المهد وقد أصبَحَ اليومَ عُشًّا طارَ منه فِراخُهُ؟ ما نفعكم من أنبيائكم ما لم يَشُعَّ نورُهم في قلوبكم؟ أراكم قد دفنتموهم في بطونِ الكتُبِ وفي ظلمات المعابد ويا ليتكم تدفنونهم في أرواحكم.. يا أبناء بلادي! لا يبهرنّكم برقٌ يلعلعُ في عيون المدنية الغربية. إنه برق خُلّب، ولا يهولنّكم رعد يزمجر في صدرها، إنه لحشرجة الموت، ولا يحزننّكم أن لا علَمَ لكم يخفق في مقدمة إعلام الأممِ. فإنني لست أرى بين تلك الإعلام ولا عَلمًا لا أثر فيه للدم والاغتصاب والتهويل والارهاب»[1].

١- ميخائيل نعيمة؛ *زاد المعاد*؛ ط ٣، ٣٩ – ٤٣.

شهادتان حول
أزمة الدارسين في الغرب

الطلبة المهاجرون إلى الغرب للدراسة يخرجون من منطقة مصابة بهزائم سياسية وعسكرية وفكرية وثقافية، ومصابة بانتكاسة في مسيرتها الحضارية، من هنا فانهم حين يذهبون إلى الغرب يتعرّضون غالبًا إلى «التذويب».

وهذه الظاهرة حثت المسؤولين المصريين في الثلاثينات من القرن الماضي لبلورة خطاب خاص بهؤلاء، وهي تجربة هامة يمكن أن تساعد في بلورة خطابنا المعاصر للمهاجرين الشرقيين إلى الغرب.

في عام ١٩٣٢ انعقد بمصر «مؤتمر الطلبة الشرقيين» وخاطبهم رجال الفكر في مصر. أختار مقتطفات من اثنين منهم، الاول: عبد الوهاب عزّام. وأذكر هنا أن عبد الوهاب عزّام عاش في الغرب سفيرًا، ومرّ بتجربة الدعوة إلى نوع من الذوبان في الغرب باعتباره مقدمة ضرورية للنهضة، ثم مرّ بالتجربة القومية للنهوض، ثم عدل عن ذلك واتجه إلى مشروع التواصل الشرقي –الشرقي في إطار إحياء الحضارة الإسلامية باعتباره السبيل الوحيد لنهضة العرب والمسلمين، ومن هنا بدأ بأكبر مهمّة في العصر الحديث ضمن إطار التواصل العربي ـ الإيراني، فكان المؤسس لأقسام اللغة الفارسية في

الجامعات المصريّة، والمترجم لكثير من آداب اللغة الفارسية إلى العربية، ومن المهتمين بإقبال اللاهوري وبالدراسات الشرقية.

قال الدكتور عزّام مخاطبًا الطلبة:

«أضلَّ الشرقيون أنفسهم، فإذا هم أجسادٌ تنبضُ بقلوب الغرب وتفكّر بعقوله، و إذا هم مستسلمون لكل ما تَطَلعُ به أوربا، منقادون لكلِّ ما تأمرهم به، متهافتون على كل ما اتّصل بها، ثم إذا هم ألاء مقلّدون، يُحقّرون أنفسهم وآباءهم وميراث حضارتهم وتاريخهم، إلا أن تعظّم أوربا أبًا من آبائهم أو تُعجَب بمأثرة من مآثرهم فيقتدوا بها.. والخلاصة أن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم، كما يأخذون منسوجات القطن والصوف ومصنوعات الحديد والنحاس وأصناف الأحذية.. وكأنهم أوان شرقية تملؤها أوربا بما تشاء من حلو ومرّ وجيّد ورديء.. ذلكم حالنا اليوم وموقفنا من أوربا، وذلكم شرَّ حال وأسوأ موقف. فما وراء هذه الأدواء إن أردنا لانفسنا السلامة والعافية؟

أولُ عنصر في هذا الدواء أن نجد (أنفسَنا). بعد أن فقدناها وضللنا عنها. أعني أن نعدَّ أنفسنا أناسا أحياء مفكرين ، لهم حقوق في هذا الحياة وعليهم واجبات، يربئون أن يسخَّروا لغيرهم.. فإذا أحسسنا في أنفسنا كرامة الإنسان وأنفة الحرّ، فكّرنا فعرفنا الذي نأخذ من أوربا والذي ندع، والذي نستحسن لانفسنا والذي نستقبح، ونقدنا فقلنا: هذا حلال وهذا حرام، وهذا طيب وهذا خبيث، ثم رجعنا إلى تراث آبائنا نحفظ منه كلَّ مفخرة، ونعتزُّ فيه بكلِّ مأثرة، وخطّطنا لأنفسنا في معترك الحياة خطة من عمل عقولنا

وأيدينا ووحي تاريخنا وآدابنا تصل ماضينا وحاضرنا بالمستقبل الذي هو أشبه بنا وبأخلاقنا. إذا أحسنا التفكير عرفنا فرق ما بين الصناعات والاخلاق والعادات، ولم يلتبس علينا ما نأخذ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائجها وما نتجنب من أخلاقها وآدابها، فإنه لا فرق بين الحساب والهندسة والكيمياء في الشرق والغرب، ولكن شتّان ما بينهما في العقائد والخلق وسنن الاجتماع، فإن لكل أمة من أخلاقها وآدابها ثوبًا حاكته القرون وعَمِلت فيه الاجيال، فليس يصلح لغيرها، ولا يصلحُ لها غيره»[1].

والثاني الذي اقتطف بعض ما خاطب به الطلبة هو محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦). وكان هيكل أيضًا من المتحمّسين للتغريب ومن غلاة المجدّدين، يتحدث إلى الطلبة عن أزمته وأزمةِ جيله من المثقفين العرب الذين تعلّموا في أوربا، وصدّقوا دعوتها للعلم والحرية والإنسانية، ثم عادوا إلى أوطانهم مخلصين لنداء التحديث، فاكتشفوا الوجه الآخر للحضارة الغربية. يقول:

«عاد هؤلاء إلى بلادهم يبشّرون بالحضارة الغربيّة، لكنهم مالبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضا بيّنًا. الأولى: هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الاوربي لحرية العقل.. وقد راعهم من هذه الحرب

١- انظر: محمد جابر الانصاري؛ *تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي*؛ ص ٤٠-٤١

أنها لم تكن تقبل هوادةً قط، وأن ممثل انكلترا في مصر لم يكن يأبى أن يكتب في تقاريره: إنّ مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربي، وإنما هي بحاجة إلى موظّفين مِطواعين. والظاهرة الثانية انتشار المبشّرين الغربيين في كلّ مكان من المدن الكبيرة والصغيرة، بل في القرى يدعون إلى المسيحية ولا يأبون التعريضَ بالإسلام. وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظلّ هؤلاء الشباب يدعون إلى الأصول الصحيحة في الحضارة الغربية أي إلى حريّة البحث ونزاهة العلم.. ورماهم الجامدون بالإلحاد، فازدادت دعوتهم قوّة واستعارًا. ولكنّ مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن أقلَّ إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدّمنا، فما يصدّر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة.. فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحي كان أولّ ما يصدم الناظر لآثار الغرب في الشرق.. ثم كشف تعاقب السنين بعد الحرب الأولى عن الحقيقة المؤلمة المضنية، فقضية أوربا.. لم تكن إلاّ قضية الاستعمار ومن يكون له حقُّ التوسع فيه.. ثم بدت حقيقة أشدُّ من هذه الحقيقة مرارة وإيلامًا، تلك أنّ الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرّر من قيود التعصب الديني مايزال يذكر الحروب الصليبية التي نشبت خلال القرون الوسطى بين المسيحية والإسلام، وإن كلمة «لورد اللنبي» يوم استولى على القدس، وقوله: «إن الحرب الصليبية قد انتهت» كانت تعبّر عن معنى يجولُ بخاطر الدول الأوربية جميعًا»[1].

١- المصدر نفسه، ص ٤٣.

ظاهرة المؤسسات الحضارية

من مظاهر التعارف بين المغتربين انبثاق مؤسسات تستوعب المقاصد الإسلامية والحضارة الغربية وتهتمّ بالتعارف بين الإسلام والغرب. من تلك المؤسسات:

.المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وهو مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية أنشئت في الولايات المتحدة في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

.توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.

.استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.

.إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

ـ عقد المؤتمرات والندوات العلميَّة والفكريَّة المتخصّصة.

ـ دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر النتاج العلمي المتميز.

.توجيه الدراسات العلميَّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وهذه المؤسسة تصدر مجلة «إسلامية المعرفة» وهي تعرّف نفسها بأنها منبر مفتوح لتحاور العقول وتناظر الأفكار والآراء يهدف إلى:

ـ إعادة صياغة المعرفة الإنسانية وفق الرؤية الكونية التوحيدية من خلال الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون.

ـ الإصلاح المنهجي للفكر الإسلامي و إعطاء الاجتهاد مفهومه الشامل بوصفه يمثل التفاعل المستمر لعقل الإنسان المسلم مع الوحي الإلهي سعيًا لتحقيق مقاصده وأحكامه وتوجيهاته فكرًا وسلوكًا ونظمًا ومؤسسات في إطار من الأوضاع الاجتماعية والتاريخية المتغيرة.

.العمل لتطوير وبلورة البديل المعرفي الإسلامي في العلوم الإنسانية والاجتماعية على أساس من التمثل المنهجي للرؤية الكونية التوحيدية والقيم الأساسية والمقاصد العليا للإسلام من ناحية، والتمثل العلمي النقدي لمعطيات الخبرة العلمية والعملية الإنسانية في عمومها وشمولها من ناحية أخرى.

ـ تحرير الإنجاز العلمي والمعرفي الإنساني من الإحالات الفلسفية الدهرية التي ألبستها إياه المدارس الفكرية للعقل الوضعي المادي.

وتسعى المجلة إلى تحقيق هذه الغايات والمقاصد الكبرى من خلال التركيز على المحاور الرئيسية التالية:

١.قضايا المعرفة: مصادرها ومناهجها ونظمها وفلسفتها.

٢- منهج التعامل مع القرآن الكريم بوصفه أساس المرجعية الإسلامية، ومع السنة بوصفها تمثل نموذج البيان القولي والعملي والتطبيق الفعلي لأحكامه وتوجيهاته في الإطار النسبي لظروف الزمان والمكان.

٣- العلوم الإنسانية والاجتماعية في المنظور الإسلامي فلسفةً وأصولاً ومناهج.

٤- فلسفة العلوم الطبيعية في إطار رؤية الإسلام لمقام الإنسان وعلاقاته التسخيرية بسائر ظواهر الكون والطبيعة.

٥- منهجية التعامل مع التراث الإسلامي في شموله وتعقيده وتاريخيته بوصفه تجسيدًا للخبرة التاريخية للأمة، يعكس تفاعل العقل المسلم مع نصوص الوحي لتنزيل قيمه وتحقيق مقاصده و إيقاع أحكامه في سياق الظروف المتحولة للتاريخ والمجتمع.

٦- مناهج التعامل مع التراث الإنساني عمومًا والتراث الغربي خصوصًا تعاملاً علميًا ونقديًا يستوعب حكمته و إيجابياته ويتجاوز قصوره وسلبياته.

وعنوان هذه المؤسسة:

International Institute of Islamic Thought

(Grove St., (P.O.Box 669 ٥٥٥

Herndon, VA 20170-4705, USA

والعنوان الالكتروني: E-mail:iiit@iiit.org

.مركز دراسة الثقافة والحضارة، وهي مؤسسة تعرّف نفسها بأنها

«ثقافية تعالج مسائل التجديد وأنماط التفكير وشؤون الحياة المعاصرة مستنيرة بتجربة المعيشة في الغرب، ومنطلقة من منظور حضاري إسلامي».

ومجلتها (الرشاد) تقول إنها «ترحب بالمقالات ذات الروح التجديدية التي تستوفي شروط الأصالة، كما ترحب بالمقالات التي تعالج معضلات واقع المسلم من منظور حضاري إسلامي».

ونظرة على ما تنشره المجلّة من مقالات نستطيع أن نفهم اتجاه المركز المذكور.

في العدد ١٢ نرى العناوين التالية:

منهج الحوار في الإسلام .أمتنا بين ملامح الوعي ومؤثرات الضغط الحضاري.

وفي العدد ١٣: الثقافة تواصل .الحوار والفزع من الآخر .مدخل إلى فقه الاقليات .قيم المجتمع الامريكي/ نحو فهم الآخر .ماذا أعطى الإسلام للبشرية؟

وفي العدد ١٤: الخلافة من خلال رؤية الإنسان الكونية .إعادة إنتاج الفكر التقليدي بلغة العصر.

وفي العدد ١٥: العولمة ومستقبل الحضارة الإسلامية – من التدافع إلى التعارف.

وفي العدد ١٦: حول العلمانية وفصل الدين عن الدولة.

وفي العدد ١٧: الاجتهاد المقاصدي وعلاقته بالتجديد.

وعنوان المجلة: Alrashad - 2222 Foothil Blvd - #E320 - La canada CA91011-USA

التعايش الأخوي العربي الإيراني
في ظل الإسلام

كانت إيران قبل الإسلام إمبراطورية تتلخص حركتها في تحقيق أهداف توسعية تسلطية شأنها شأن كلّ القوى المتجبرة الجاهلية، وكان العرب ممن اكتووا بنار هذه الأهداف، نلاحظ ذلك في علاقة كسرى بملوك المناذرة في الحيرة، فما إن ساءت العلاقات بين كسرى پرويز والنعمان أبي قابوس حتّى قضى كسرى على دولة المناذرة رغم ما أسداه عرب الحيرة من خدمات للبلاط الإيراني الكسروي في فتح مصر وفي صد اليونانيين. كما أن الوثائق تذكر نزاع الإيرانيين والعرب حول حصن الضيزن على شاطئ الفرات وتحدثنا الوثائق عن صراع دموي حدث بين الإيرانيين والعرب في عصر سابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩م) إذ أغارت القبائل العربية على أطراف مملكته فانتقم سابور منها وأسكن أسراها في كرمان وأهواز ومناطق أخرى من أرض إيران. ويقال إن سأبور هذا كان ينزع أكتاف رؤساء القبائل العربية فسماه العرب ذا الأكتاف.

لا تذكر الوثائق التاريخية عن تعايش سلمي بين العرب والإيرانيين قبل الإسلام سوى ما حدث في اليمن، إذ دخلها الإيرانيون

ليخلصوا اليمنيين من الأحباش، فاستوطنوا فيها وتعايشوا مع أهل اليمن، وربما يعود هذا التعايش السلمي إلى بعد اليمن عن السيطرة الكسروية المباشرة[1].

أما بعد الفتح الإسلامي فقد أصبح العرب والإيرانيون أمة واحدة واصبحوا بنعمة الله إخوانًا، وسجل التاريخ صفحات رائعة من التآخي العربي الإيراني، هي بحق من أروع صفحات عطاء الدين في إنقاذ الشعوب من النزاعات الدموية ومن الروح التسلطية المتفرعنة ويحتاج استعراض هذه الصور الرائعة إلى دراسة مستقلة فأكتفي بذكر بعض اللقطات منها:

هاجرت القبائل العربية إلى شرق العالم الإسلامي فتوطنت مع الإيرانيين في العراق و إيران وكانت الهجرة كثيفة بشكل خاص إلى خراسان الكبرى . وكانت اللغة السائدة في العراق العربية ومعها الفارسية، والسائدة في إيران الفارسية ومعها العربية وعلى أثر التزاوج والتعايش نشأ أبناء العرب على اللغة الفارسية، ولم يمض جيلان حتّى تعذر التمييز بين العرب والإيرانيين في اللغة والملبس والعادات والتقاليد[2].

وهناك من يحاول أن يتخذ من قضية الموالي والتعامل العربي معهم موضوعًا للطعن في التعايش الأخوي بين الإيرانيين والعرب.

١.انظر: جواد علي، *تاريخ العرب قبل الإسلام*، وجرجي زيدان، *العرب قبل الإسلام* .

٢.اشبولر، *تاريخ إيران في القرون الإسلاميّة الأولى*، ج ١ ص ٢٣٩ وما بعدها من الترجمة الفارسية .

والواقع أن نظام الولاء وفّر فرصة زوال الفواصل بين القبائل العربية والمسلمين الجدد، حيث أصبح الموالي جزءًا من هذه القبائل يتمتعون بكل ما توفره القبيلة لأبنائها من حماية سياسية واقتصادية واجتماعية. ثم إن الحديث عن الموالي على أنهم فئة اجتماعية واحدة فيه الكثير من المجازفة والتبسيط المخلّ كما يقول الدكتور الدوري[1] لأن الموالي لم يكونوا فئة واحدة، فمنهم الكتاب والوزراء، ثم منهم الفقهاء والعلماء ولهؤلاء منزلة عالية، ومنهم التجار، وأثرهم كبير في الحياة الاجتماعية، كما أن منهم الصناع والفلاحين، وكان ينظر إلى هذه الفئة الأخيرة نظرة متواضعة.

والواقع إن التاريخ احتفظ لنا بصور من الإهانات التي نزلت بالموالي وخاصة في العصر الأموي حتّى أن الجزية فرضت على المسلمين منهم في فترة من فترات الحكم الأموي، ولكن هذا لم يخل بالتعايش السلمي بين الإيرانيين والعرب فكلاهما كان متبرمًا بظلم الأمويين وساخطًا عليهم، كما أن العرب دافعوا عن الإيرانيين تجاه ما أنزله بهم بعض الولاة العرب المتعصبين من ظلم وتمييز عنصري[2]، ثم إن الخراسانيين عربًا و إيرانيين تعاونوا في القضاء على الحكم الأموي واستئصال شأفته.

١.مقال : العلاقات التاريخية بين إيران والعرب، مقال غير منشور.

٢.انظر الطبري ٩ / ١٣٥٢ حول شكاية أبي الصيداء إلى عمر بن عبد العزيز حين قدم إليه من خراسان، وتظلم من أن عشرين ألفا من الموالي يغزون مع العرب بدون عطاء ولا رزق، وأن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة تؤخذ منهم الجزية، كما استغاث به من جفاء الأمير وعصبيته.

جـدير بالـذكر أن القـوميين المتعصـبين مـن العـرب والإيـرانيين يحـاولون أن يركـزوا علـى بعـض الحركـات القوميـة الإيرانيـة التـي شـهدها التـاريخ مثل حركـة «به آفـرين» و«سـنباد» و«بابك الخرمـي» و«مازيـار» ليثبتـوا تفـوق العنصـر القـومي لـدى الإيـرانيين علـى الـروح الدينية، ولكـن كل الوثائق التاريخية تشهد خـلاف ذلـك، ففـي كلّ أمـة شـواذ، ولا أدل علـى شـذوذ هـؤلاء مـن انـزوائهم عـن الأمـة وتحـولهم إلـى لصـوص وقطـاع طـرق ومجـرمين، حتّـى تـم القضـاء عليهم بيد القادة الإيرانيين أنفسهم من أمثال أبي مسلم والأفشين[1].

ولا بـأس مـن الإشـارة إلـى أن مصـر تعتبـر واحـدة مـن أهـم منـاطق التعايش العربـي ـ الإيرانـي، فـالإيرانيون بعـد الإسـلام شـاركوا في فـتح مصر من اليمن، ثم كانوا يشـكلون نسـبة كبيـرة من الجيش الـذي تعقب مروان آخر الخلفاء الأمويين إلى هذا البلد. وعند القضـاء على الأمـويين سـكن كثيـر مـن الإيـرانيين في مصـر، وتعايشـوا مـع المصـريين حتّـى إن أهـل مصـر كـانوا يرجعـون في عصـر إلـى الفقيـه الإيراني الليث بن سعد.

١.انظر: اشبولر، *تاريخ إيران في القرون الإسلاميّة الأولى*، ص ١٠٠ وما بعدها من الترجمة الترجمة الفارسية .

الثقافة الإسلامية في إيران
في عصر الدول والإمارات

الحديث عن الثقافة الإسلامية في إيران، بعد أن نشأت فيها دول وإمارات مستقلة عن الخلافة العبّاسية له أهميته الفائقة. فهذه الثقافة قد انتعشت أدبيًا وعلميًا بشكل واسع مما يدل على العمق الإنساني لهذه الثقافة في الوجدان الشعبي. فنجد دائرة الثقافة الإسلامية تتّخذ حواضر عديدة في إصفهان، والري، وغزنة، وبخارى، وشيراز.

وهذا الانتعاش يدلّ بوضوح أن هذه الثقافة أصبحت لا تنفك عن هوية الإيرانيين وشعورهم القومي والثقافي والديني. حتى الدول التي اهتمت أكثر من غيرها بالجانب القومي الفارسي واللغة الفارسية والآداب الفارسية مثل الدولة السامانية في خراسان الكبرى وعاصمتها بخارى كانت تموج بالنشاط الثقافي الإسلامي العربي. يقول الثعالبي عن حاضرة السامانيين: «كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر»[1].

ويستعرض الثعالبي في بخارى صورًا من مجالس أدبية ثقافية

١- الثعالبي *يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر* ٣/٣١٨.

كانت تتعاطى الشعر العربي وعلوم اللغة العربية وآدابها. ونيشابور من بلدان الدولة السامانية كانت منارًا للثقافة العربية الإسلامية بمجالاتها العلمية والأدبية والثقافية. ولقد طلبتُ من أحد طلابي في قسم الدكتوراه أن يكتب رسالة في الشعر العربي بنيشابور، فتردّد ظانًا بأن المادة الموجودة لا ترتفع إلى مستوى كتابة رسالة عنها، فوجّهته إلى بعض المصادر، فجاء بعد مدّة ليقول: إن «زوزن» وحدها، وهي من قرى نيشابور، صالحة لأن تكتب فيها رسالة دكتوراه.

أما الدولة البويهية فكان عصرها بحق عصرًا ذهبيًا للثقافة العربية الإسلامية بشخصية عضد الدولة وبوزيريها عميد الملك والصاحب بن عباد وبمكتباتها ومجالسها الأدبية وشعرائها وأدبائها وعلمائها، يقول الثعالبي عن مجلس الصاحب بن عباد: «احتفّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر، وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يُربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصّرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ومِلْكِ رقِّ المعاني..»[1].

«وانبرى ثلاثة إيرانيين ليواصلوا عمل أبي الفرج الإصفهاني في وضع تراجم للشعراء والأدباء هم الثعالبي في *يتيمة الدهر* والباخُرزي في *دمية القصر* والعماد الأصفهاني في *خريدة القصر*، وفي هذه الكتب الثلاثة أسماء مئات الشعراء والأدبا ولم يقتصر الأمر على

١- المصدر نفسه ٣٠٣/٣.

الحواضر بل شاركتها مثل بلاد الجبل وجرجان وطبرستان وخوارزم وأهواز ونيشابور وهراة»[1].

والملفت للنظر أن الساحة الثقافية الإيرانية رغم استقلالها سياسيًا كانت متواصلة مع العالم العربي بشكل مدهش. ويكفي أن نذكر ـ على سبيل المثال ـ أنّ اهتمام إيران بشعر المتنبي لم يكن يقلّ عن اهتمام العالم العربي به والغريب أن المتنبي كان يُنشد الشعر في حلب ومصر والعراق فتصل قصائده بسرعة إلى إيران، وترددها الألسنة.

هذا على صعيد الأدب وهو صعيد ـ كما ذكرنا ـ يعبّر عن عمق التجربة الشعورية المشتركة للأمة. أمّا على الصعيد العلمي، فنرى ما يمكن أن نصفه انفجارًا علميًا في السعة والعمق. ونسجّل باختصار الملاحظات التالية على الجانب العلمي من الثقافة الإسلامية في إيران:

١ـ اقترنت الحركة الثقافية منذ العصر العبّاسي بحكّام مثقفين وعلماء يشجعون أهل الأدب والعلم، ويعقدون مجالس البحث والمناظرة، ويؤسسون المكتبات، فهناك علاقة جدلية بين هؤلاء الحكام وتطور الحالة الثقافية، الحالة تتطلب وجود هؤلاء، وهؤلاء يدفعون بعجلة التطور الثقافي.

وفي هذا العصر نرى بين الحكام في إيران أسماء ثقافية خالدة أمثال **عضد الدولة** و**ابن العميد** و**الصاحب بن عبّاد** و**نظام الملك**،

١- شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي* ٥٧٠/٥.

ومن لم يكن منهم صاحب علم وثقافة حرص على أن يكون بلاطه مرتعًا للعلم والعلماء مثل محمود الغزنوي الذي أصرّ على طلب البيروني وابن سينا وأبي سهل المسيحي والطبيب ابن الخمّار والرياضي أبي نصر بن العرّاق، وكانوا جميعًا يعيشون في رعاية حاكم خوارزم فلبّى الطَلَب ابنُ العرّاق وابن الخمّار والبيروني، ورفضها أبو سهل، وكذلك ابن سينا الذي اتجه نحو قابوس بن وشمگير صاحب طبرستان وجرجان.

والغريب في هذا العصر أن الثقافة الإسلامية حوّلت العشائر الدموية المتوحّشة التي غزت إيران وحكمتها إلى حكام وأناس محبين للثقافة والمثقفين أو قلْ على الأقل يرون أن استمرار وجودهم يتطلب دعمًا و إسنادًا من أهل العلم والأدب في البلاد.

السلاجقة على سبيل المثال قبائل من أتراك الغُزّ والخزر لم يكن لهم من الثقافة حظ، لكنهم حين استولوا على إيران استوزروا العلماء والمثقفين، والمشهور منهم .كما ذكرنا .نظام الملك الذي اقترنت مدارس النظامية في بغداد و إصفهان وطوس وبلخ وهراة ونيشابور باسمه، ووفّروا للعلماء والأدباء جوًا جعل من عصر السلاجقة عصرًا علميًا أدبيًا باهرًا.

والمغول ـ مع كل وحشيتهم وفظاظتهم ـ هضمتهم الثقافة الإسلامية بعد حين من استيلائهم على إيران، وأصبحوا من رموز الحركة الثقافية. فهذا غازان (٦٩٣ – ٧٠٣) «أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عصرًا ذهبيًا، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره

بين المغول نشرًا واسعًا، وعُني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية، وقد بنى فيها رباطًا وبيمارستانًا ومدارس دينية ومرصدًا كبيرًا، ومكتبة فخمة، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقرّاء والأساتذة والطلاب».

ومن جوه حكّام المغول التيموريين حسين با يقرا (٨٧٤-٩٠٣هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزًا مهمًا من مراكز الثقافة الإسلامية.

وبعد القضاء على التيموريين فرّ آخر حكامهم سنة ٩٠٦هـ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام، وهذه الدولة من مراتع الثقافة العربية الإسلامية وتحتاج إلى دراسة مستقلة.

٢ـ ومن مظاهر الجانب العلمي في الثقافة العربية الإسلامية في هذا العصر بإيران تنوّع جوانب المعرفة تنوعًا غطّى احتياجات المجتمع المادية والمعنوية.

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفًا على الفقهاء بل شارك فيها عامّة الناس، وهكذا الحديث النبوي فقد شاعت رواية الحديث والتثّبت فيه وظهرت محدّثات شهيرات مثل كريمة المروزية وقرأ عليها الخطيب البغدادي *صحيح البخاري*، وعائشة البوشنجية، وفاطمة الدقاق وعنها أخذ الحديث بنيشابور كثيرون[1].

١- انظر: السبكي *طبقات الشافعية الكبرى*، ففيه صورة شاملة للثقافة الفقهية في خراسان.

برز في إيران خلال هذا العصر عالمان كبيران هما ابن سينا والبيروني، وكان لهما دور كبير في تطوير العلوم ودفعهم حبهم لاكتشاف المجهول أن يرموا ببصرهم إلى أقطار السموات محاولين اقتحام مجاهيلها. ويذكر الدوميلي في كتاب *العلم عند العرب* أسماء عشرات الفلكيين الإيرانيين الذين نقّحوا وصحّحوا كتب الفلك اليونانية وأضافوا إليها وطوّروا علم الهيئة والنجوم على نحو ما نراه عند أبي الفتح الأصفهاني، وأبي الحسين الصوفي، وعمر الخيام، ونصير الدين الطوسي، وقطب الدين الشيرازي وغيرهم كثير.

ونرى في هذا العصر الرياضيين والكيمياويين والجغرافيين والمتخصّصين في العلوم الطبيّة والطبيعة. ولذلك اتسعت العلوم وتطلبت المكتبة العربية إلى فهارس فتصدّى لهذه الغاية مَنْ قسَّمَ المؤلفات إلى علومها المختلفة على نحو ما نعرفه في كتاب *الفهرست* لابن النديم.

كما أن اتساع العلوم تطلّب ضبط مصطلحاتها على نحو ما تفعله المجامع العلمية اليوم، وممّا وصلنا من كتب في هذا العمل العلمي *مفاتيح العلوم* للخوارزمي، وكتاب *التعريفات* للشريف الجرجاني.

والملاحظ في هذا التنوع الثقافي أنه كان متوازنًا منسجمًا يهتم بالطب كاهتمامه باللغة، ويهتمّ بالكيمياء كاهتمامه بالنحو، ويهتم بالفلك كاهتمامه بالشعر، ليس فيه إفراط ولا تفريط، وما أبعد هذه الحالة الثقافية عن حالات يُصاب بها بعض مثقفينا

المنفعلين الذين إذا انفتحوا على علم من علوم الغرب يتنكرون للغتهم وثقافتهم وآدابهم.

حركة اللغة والنحو والبلاغة والنقد في هذا العصر ازدهرت بإيران لتعبّر أكثر مما مضى عن ارتباطها بالهوية الثقافية الإسلامية. أكثر معاجم اللغة العربية الهامة ألفت أو نشرت في إيران خلال هذا العصر. مثل معاجم الخليل، وابن دُريد، والأزهري، والجوهري، والهروي، والزوزني، والراغب الإصفهاني، وحمزة الإصفهاني، وأبي هلال العسكري، والميداني.

وظهر في إيران شرّاح مشهورون لداوين الشعراء مثل الواحدي، والزوزني، والتبريزي، كما ظهر النحويون الكبار أمثال ابن درستويه الفارسي، وأبي علي الفارسي، والزمخشري، والرضي الاسترابادي.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية هامة في البلاغة لاتزال حتى اليوم موضع اهتمام النقّاد والبلاغيين، والسكاكي في *مفتاح العلوم* قدّم مشروعًا لتعليم البلاغة لايزال متداولاً حتى اليوم، وعليه شروح كثيرة.

ويطول الحديث لو تقصينا مجالات النشاط الثقافي في هذا العصر، وهذا الذي ذكرناه يبين جانبًا من هذا التنوع والشمول والتعادل والتوازن في علوم هذا العصر وثقافته.

٣ـ النضج العلمي من مظاهر الثقافة الإسلامية في إيران خلال هذا العصر. لقد غلبت على العصر العبّاسي حركة الترجمة، غير أن هذه الحركة أوشكت أن تتوقف في هذا العصر، بدأ العلماء في

التفكير العميق وتقديم الجديد من الأفكار والنظريات في حقول المعرفة. فابن سينا قدّم الجديد في علم الطب مما جعل كتاب *القانون* عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بجامعاتهم حتى القرون القريبة، وقد ترجموه وطبعوه عشرات المرات في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وفي الفلسفة خطا خطوة عظيمة حين وفّق بين آراء أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام وكأنه أراد أن يقدم المشروع الإنساني العام لنظرة الإنسان إلى الكون والحياة، مازجًا بين الجانب العقلي والروح العرفانية أو الصوفية.

والبيروني أيضًا صاحب عقلية جبّارة يقف في كتابه *تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة* على آراء الهنود واليونان والفرس ويقارن بينها وبين آراء الإسلام مقارنة دقيقة عميقة ويبين وجوه التوافق بينها، وكأنه يبحث عن المشترك الحضاري والاختلاف الثقافي بين شعوب العالم.

جلّ مؤلفات العلماء العظام في هذا العصر ساهمت في تقدّم العلوم ودفعت المسيرة العلمية نحو التطوير. وأقف عند نموذج آخر هو **محمد عبدالكريم الشهرستاني** (ت ٥٤٨هـ). هذا الرجل الذي عاصر السلطان سنجر السلجوقي يمتاز بموسوعيته وأحاطته في عصره من «ملل» و«نحل»، وكأنه أراد أن ينفتح على كل ثقافات عصره. يستعرض الآراء في كتابه *الملل والنحل* ثم يناقشها مناقشة جادّة في كتبه الأخرى، ويقدم مشروعًا فكريًا متكاملاً. وحين

يرى أن الساحة الفكرية قد أصابها نوع من الجمود بعد ابن سينا، وهي حالة تعتري مسيرة الفكر حين يظهر فيها النوابغ الكبار، يتصدّى لابن سينا يصارعه في كتاب *المصارعة* بجرأة مستهدفًا كسر الجمود النسبي وكأن استمرار الحركة هو الأساس. يقول: «و إنما يُسبرَ غورُ العقل وتتبيّن قيمة الرجل عند مناجزة الأقران، ومبارزة الشجعان، وبالاختبار تظهر خبيّة الأسرار، وبالامتحان يكرمُ المرءُ أو يهان. وقد وقع الاتفاق على المبرز في علوم الحكمة، وعلامة الدهر في الفلسفة، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، فلا يقفوه فيها قاف و إن نقض السواد، ولا يلحقه فيها لاحق و إن ركض الجواد، وأجمعوا على أنّ من وقف على مضمون كلامه وعرف مكنون كلامه فقد فاز بالسهم المعلّى، وبلغ المقصد الأعلى، فعزمت على الاعتراض عليه ردًّا ورميًا، وتعقّب كلامه إبطالاً ونقضًا، فإن ذلك باب ضربت دونه الأسدال وقبضت عليه الحفظة والأرصاد، فأردت أن أصارعه مصارعة الأبطال، وأنازله منازلة الرجال...»[1].

الحركة المستمرة عموديًا وأفقيًا في الثقافة الإسلامية تعبّر عن روح حضارية دفعت بعامّة المجتمع نحو التطوّر والرقيّ، وفي مثل هذه الحالة يبرز عادة النوابغ وكبار العلماء الأفذاذ، ووراء هذه الروح الحضارية -إيمان بِمَثَلٍ أعلى دعت إليه رسالة الإسلام.

١- الشهرستاني، *مصارع المصارع*/ ٥ –٦

أُسَرٌ إيرانية في الحضارة الإسلامية

- آل ميكال نموذجًا -

التحام الإيرانيين بالحضارة الإسلامية بعد الفتح الإسلامي، وحجم ما انتجوه من عطاء في هذا الإطار يبين حقيقة هامة هي: أن الإسلام دخل إلى إيران عن طريق القلوب، لا بحدّ السيف كما تذكر ذلك بعض الروايات التاريخية المحرّفة، وكما يركز على ذلك معظم المستشرقين مستندين إلى تلك الروايات.

الى جانب الكثرة الكاثرة من العلماء الإيرانيين في مختلف حقول المعرفة الدينية وغير الدينية، ممن قدّموا إنتاجًا مدهشًا منذ القرن الأول الهجري، نرى ظاهرة فريدة في إطار الحضارة الإسلامية، وهي دخول أسر إيرانية في خدمة هذه الحضارة، حتى أصبح اسم هذه الأسر مقرونًا بمكانتها المرموقة في التاريخ الثقافي والعلمي والسياسي والعسكري الإسلامي.

من تلك الأسر، أسرة آل برمك ، وآل سهل، وآل نوبخت، وآل طاهر، وآل بويه. ونقف في مقالنا هذا عند أسرة نيشابورية عريقة هي أسرة آل ميكال.

أسرة آل ميكال

هذه الأسرة ظلت لمدة تزيد على قرنين تساهم بشكل فعّال

بـأرض خراسـان في الحقـول الاجتماعيـة والسياسـية والثقافيـة والأدبية[1]، وقدمت في ظل دول الطاهريين والسامانيين والغزنويين، من أواخر القرن الثالث حتى أواسط القرن الخامس خدمات جُلّى في الحقول المذكورة.

ينسب السمعاني هذه الأسرة إلى يزدجرد بن بهوام گور[2] وليس ثمة معلومات عن ميكال جدّ هذه الأسرة، لكن ابنيه «محمد» و«شاه» من أوائل الوجوه البارزة في هذه الأسرة. ثم إن أبناء محمد وشاه، وخاصة أبناء محمد، كان لهم دور بارز في الأدب العربي. ونشير هنا إلى أهم تلك الوجوه:

١. **«شاه» ابن ميكال**، أبو غانم، كان مرتبطًا بالطاهريين، ومن ممدوحي البحتري، ومن مدائح البحتري فيه قصيدة مطلعها:[3]

يـــا أبـــا غانـــم ولاز لـــت عهـاد الأنـواء تسـقي بـلادك

وأخرى مطلعها:[4]

مالـذا الظبي لاينال اقتناصـه وهو بالقرب بيّـن إفراصـه؟

ويـرد في التـاريخ اسـم «محمـد بـن ميكـال» شـقيق «شـاه»، وكذلك حفيد «شاه»: محمد بن غانم بن شاه على أنهما من قادة الجيش[5]، وليس لبقية أبناء «شاه» ذكر، لكنّ أبناء محمد اشتهر ذكرهم.

١- الثعالبي، *يتيمة الدهر* ٤/٣٥٤.
٢- السمعاني، *الأنساب* /٥٤٩.
٣- *ديوان البحتري* / ٢٨٨ .
٤- م.ن/ ٦٥٤ .
٥- *تاريخ الطبري* ٩/٣٠٢.

عبدالله بن محمد كان في جيش عمرو بن ليث الصفار، ثم تولى أمر فارس وأهواز من قبل الخليفة العبّاسي، وظل هناك حتى وفاته سنة ٣٠٨هـ. ولده الوحيد اسماعيل (أبو العباس) برز نجمه في سماء العلم والأدب.

٢- **إسماعيل بن عبدالله، أبو العباس:** ولد في نيشابور وترعرع في أرض حكومة والده، ودرس اللغة العربية وآدابها على أبي بكر بن دريد، وهذا العالم اللغوي ألف *جمهرة اللغة* باسمه، وهو يقول عن تلميذه:

«فعاشرت منه شهابًا ذكيا، وسابقًا مبرّزًا، وحكيمًا متناهيًا، وعالما متقنًا، يستنبط الحكمة بتعظيم أهلها، ويرتبط العلم بتقريب حملته، ويستجر الأدب بالبحث عن مظانه.. فبذلت له مصون ما اكتننت.. فارتجلت الكتاب المنسوب إلى *جمهرة اللغة*».

وأبو العباس يقول عن أستاذه:

«أملى عليَّ أبو بكر الدريدي كتاب *الجمهرة* من أوله إلى آخره حفظًا في سنة سبع وتسعين الا في باب الهمزة واللفيف، فإنه طالع له بعض الكتب»[1].

وفي المقصورة ينشد ابن دريد مادحًا عبدالله بن ميكال وابنه أبا العباس اسماعيل، يقول:

إن كنت أبصرت لهم من بعدهم ... مثلاً فأغضيت على وخز السفا

حاشا الأميرين اللذين أوفدا ... عليَّ ظلاً من نعيم قد صفا

١- *معجم الأدباء* ١٨/ ١٣٨.

ويعدّ أبو العباس من كبار المحدثين حتى أن عبدالغفار الأخرس والحاكم النيشابوري أخذا عنه الحديث.

لم يستجب إسماعيل لطلب الخليفة أن يتولى حكومة والده بعد وفاته، فرحل إلى نيشابور حيث طلب منه الوزير أبوجعفر بن الحسين العتبي أن يتولى ديوان الرسائل لسلطان خراسان آنذاك عبدالملك بن نوح الساماني، فوافق، وبذلك دخل بلاط السامانيين.

ولأبي العباس أربعة أبناء كان لهم ـ في عصرهم ـ كوالدهم مكانة في الأدب والفقه والحديث والمنزلة الاجتماعية وهم: عبدالله، ومحمد، وعلي، وعباس.

الكاتب الحافظ

٣- عبدالله بن اسماعيل الميكالي، أبو محمد. يقول عنه الثعالبي[1]: «وهو أشهر، وذكره أسير، وفضله أكثر من أن ينبّه عليه. وله ـ مع كرم حسبه وتكامل شرفه ـ فضيلة علمه. كان من الكتابة والبلاغة بالمحلّ الأعلى. وله من سائر المحاسن القدح المعلّى. فكان يحفظ مائة ألف بيت للمتقدمين والمحدثين يهذّها في محاضراتها، ويحلّها في مكاتباته».

قيل إنه كان يقرأ القرآن كاملاً في ركعتي صلاته، وانعقدت له مجالس الحديث في نيشابور ودامغان والكوفة ومكة. وحج سنة ٣٧٩هـ وتوفى هناك عن ٧٢ سنة، وشُيّع تشييعًا مهيبًا، دلالة على

١- *يتيمة الدهر* ٤/٤١٧.

شهرته ومكانته بين المسلمين آنذاك، ودفن إلى جانب الفضيل بن عيّاض.

والمقدسي رأى مجالس عبدالله الميكالي، وتحدث عن عظمتها وعن شخصية هذا الرجل.

وفي اليتيمة أبيات لعبدالله تدلّ على تديّن الرجل إضافة إلى ذوقه الشعري يقول:[1]

إن يكن خاننني الاحبّة طرًا ... فشجاني جفاؤهم وبراني
فعلى الله في الأمور اتكالي ... وبه الاعتصام مما أعاني

المؤلف الشاعر

٤- محمد بن عبدالله الميكالي، أبو جعفر، ويروي الثعالبي[2] أنه «كان متقدمًا في الأدب، متبحّرًا في علم اللغة والعروض، مصنفًا للكتب، مستكثرًا من قول الشعر. ولعل شعره يربي على عشرة آلاف بيت».

وفي مدحه ومدح أسرته يقول بديع الزمان الهمداني صاحب *المقامات*:

يابني ميكال والجو ... دُ لعلاّتي مزيح
شرفًا إن مجال الفضـ ... ـل فيكم لفسيح
وعلى قدر الممدوح ... يأتيك المديح

١- م.ن ٤/٤١٨.

٢- م.ن/ ٤١٨.

فهنـــــاك الشـــــرف الار فـــع والطـــرف الطمـــوح
والنـــــدى والخلـــق الـــطـا هـــر و الـــوجـــه الصبيـــــح

ومـن الأبيـات التـي بقيت مـن شـعر محمـد بـن عبـدالله الميكـالي قوله:

إذا أراد الله أمـــــرًا بـــــامرئٍ وكـــان ذا عقـل ورأي وبصـــر
وحيلـة يعملهـا في كـل مـا يـأتي بـه جميـع أسـباب القـدر
أغـراه بالجهـل وأعمـى قلبـه وسـلّه مـن رأيـه سـلّ الشـعر
حتـى إذا أنفـذ فيه أمـــــره ردّ عليـــــه عقلـه ليعتـــبـــر

بعـد أبـي جعفـر الميكـالي، ارتبطـت هـذه الأسـرة بـالغزنويين عـن طريق علي بن محمد الميكالي.

٥- **علي بن محمد الميكالي**، أبو القاسم، دعاه السلطان محمود إلى غزنة وولاّه رآسة المدينة، ولقبه برئيس الرؤساء والخواجة، وأصبح أمير الحاج لمنطقة خراسان وماوراء النهر.

٦- **الحسين بن علي الميكالي**، أبوعبد الله، وكانت له نفس منزلـة أبيـه في بـلاط مسـعود الغزنـوي، واشـترك في المعـارك بـين الغزنويين والسلاجقة وأسر سنة ٤٢٦هـ بيد جيش السلاجقة، فأنقذه چغـرل بيـك، واسـتخدمه السـلطان السـلجوقي طغـرل في الـوزارة، وكان الباخرزي صاحب *دمية القصر* كاتبه، توفي سنة ٤٥٠هـ.

نعود إلى الابنين الآخرين لاسماعيل، أبو العباس، وهما: محمد وعلي.

محمدبن إسماعيل، أبو الحسين أو أبو جعفر كان فقيها متضلعًا بالشعر واللغة والأدب، ومحدثًا، روى عنه الحاكم النيشابوري ، توفي سنة ٣٨٨هـ.

وعلي بن إسماعيل، أبو القاسم، جدّ أبي الفضل الميكالي المعروف. واشتهر بولعه في الجهاد حتى سمّي بالمطوّعي.

ومن أبناء علي بن اسماعيل المشهورين: أحمد بن علي، أبو نصر. وهو وجه في الأدب والدولة.

ممدوح الشعراء

٧- **أحمد بن علي**، أبو نصر، كانت له رئاسة نيشابور، يتحدث العتبي عن مكانته في الأدب وكفاءته في إدارة الامور، وبُعد نظره، وأبو الفتح البستي أنشد فيه:

جمع الله في الأمير أبي نصر ... خصالاً تعلو بها الأقدارُ

راحةً ثرّةً وصدرًا فضاءًا ... وذكاءًا تبدو له الأسرارُ

خطّهُ روضة وألفاظه الأز ... هار يضحكن والمعاني غارُ

ويقول عنه الثعالبي: «.. والأمير أبو نصر أحمد بن علي الآن بقية الأماجد وغرّة الأكارم وعمدة الأفاضل، وواحد خراسان ومفخرتها وجمالها وزينتها، ومن لا نظير له في شرف النفس وبُعد الهمة ورفعة الشأن، وتكامل آلات السيادة..».

مدحه الأدباء والشعراء وأثنوا عليه ومنهم أبو بكر الخوارزمي الأديب المعروف، ويقول عن أبي نصر[1]:

نجرّ ذيول الفخر حتى كأننا ... لعزّتنا في آل ميكال ننتمي

١- *ديوان الخوارزمي* / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

هُـمُ شـحمة الـدنيا فـإن نتعـدّهم الى غيرهم نحصل على الفرث والدمِ
سقى الله ذاك الروض جودًا كجودهم وصـــيّر آجـــال الغـــداة إلـــيهمِ
وأبقـى أبا نصـر ليربي عليهـــم سنين كمـا أربـى بنيـن عليهـــمِ

وممـن لازم أبـا نصـر مـن الأدبـاء بـديع الزمـان الهمـداني، وكـان يخاطـب أبـا نصـر كمـا يخاطـب المتنبـي سـيف الدولـة في تعظـيم مقرون بغرور[1].

أشهر أبناء أحمد بن علي الميكالي: نصر بن أحمد، وأشهر منه عبيد الله بن أحمد الميكالي (المعروف بأبي الفضل الميكالي).

٨- **نصربن أحمد الميكالي**، أبو إبراهيم، يظهر أنه كان شاعرًا بالعربيـة والفارسـية، لكنـه ماكـان ينشـر شـعره، بـل يُلـتقط مـن مجالسه، يقول الثعالبي:

«.. لم يُرَ مثله في الجمع بين شرف الأهل وكمال المجد وكرم الطبع وبين آداب العربية والفارسية والآداب الملوكية، وله شعر بارع قلّ مـايظهره، ولكـنّ دره تُلتقط مـن مجلسـه، ودرره تخـتلسُ مـن فمه».

ماروي من أشعاره يحكي لطافة ذوقه وقدرته على ابتكار المعاني وعلى حكمته، يقول:

اتـق الله لا الأعـداء واعلـم يقينًـا بأن الـذي لـم يقضه لـن يصيبكا
وحظك لا يعدوك إن كنت قاعدًا ولا أنت تعدو حين تعدو نصيبكا

وفي أبيات أخرى يستهين بالعيش في القصور، يقول:

١- الثعالبي، *يتيمة الدهر* ٤/٢٦٣.

عجبـا للزمـان حـين بلانـي بأنـاس لهـم عقـول سـخيفهْ
حسـدوني علـى نزولـي خصًّـا بعد سكناي في قصور منيفهْ
حسـد الكلـب والغراب إذا ما رأيا الباز واقعـًا فـوق جيفـه

و إذا أردنـا أن نستوفي الحـديث عـن أبنـاء إسـماعيل (أبوالعبـاس) المار ذكره، فنشير إلى عباس الذي ارتبط أبناؤه ببلاط السامانيين ثم الغزنويين.

ليست لدينا معلومات عن عباس، لكن المشهور من أحفاده حسن بن محمد المعروف باسم «حَسَنَك الوزير». كان موضع اهتمام السلطان محمود الغزنوي، ففوض إليه منصب الوزارة وهو شاب سنة ٤١٥هـ. يظهر أنه كانت له في نيشابور خدمات اجتماعية وأمنية و إعمارية جليلة، ولذلك مدحه شعراء الفارسية وخاصة «فرّخي».

والغريب أن حَسَنك هذا سرعان ما نُكب وقتله السلطان سنة ٤٢٢هـ بتهمة القرمطية! وفي ذلك يقول البغدادي المستوفي:

أبدى لك الدهر في أحواله عجبًا لو كنت يومًا بما تلقاه معتبرا
انظر بعين النهى في حَسَنَكْ لترى سحاب كل بلاد أرضه مطرا
صلب ورجمٌ وحزّ الرأس بعدهما من يقهر الناس في سلطانه قُهرا

أعظم شخصية أدبية في الأسرة

٩- عبيدالله بن أحمد الميكالي،أبو الفضل، أعظم شخصية أدبية في هذه الأسرة.

يقول عنه الثعالبي[1]:

«والأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والاخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر، ومكانه منهم الواسطة من العقد، لأنه يشاركهم في جميع محاسنهم وفضائلهم ومناقبهم وخصائصهم، ويتفرّد عنهم بمزية الأدب الذي هو ابن بجدته وأبو عذرته وأخو جملته، وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغة..».

ونسبت اليه كتب عديدة لم تصلنا منها: *ديوان أشعاره وفضائل الملوك ومخزن البلاغة وشرح حماسة أبي تمام وملح الخواطر ومنح الجواهر وشرح ديوان المتنبي...*

وتروى لهذه الأمير أشعار فيها ذوق أدبي رفيع، منها قوله في وصف مطر هطل عليه وعلى رفاقه وهم في طريق سفرهم:

دهتنا السماء غداة السحاب ... بغيثٍ على أفقه مسبلِ
فجاء برعدٍ له رنَّةٌ ... كرنّة ثكلى ولم تثكلِ..
وأشرف أصحابنا من أذاه ... على خطر هائل مُعضِلِ
فمن لائذ بغناء الجدار ... وآوٍ إلى نفق مُهمَلِ
ومن مستجير ينادى الفريق ... هناك ومن صارخ معولِ
وأقبل سيلٌ له رَوعة ... فأدبر كلٌّ عن المقبلِ
يقلّع ما شاء من دوحة ... وما يلق من صخرةٍ يحملِ
كفانا بليّته ربّنا ... فقد وجب الشكر للمفضل
فقل للسماء ارعدي وابرقي ... فإنا رجعنا إلى المنزلِ

١- الثعالبي، مصدر مذكور٤/٣٥٤ .

الأصالة والمعاصرة في حركة السيد جمال الدين الحسيني

شهد العالم الإسلامي قبل السيد حركات إصلاحية سلفية في الجزيرة العربية (منذ ١٧٤٤م) وفي الجزائر على يد عبدالقادر الجزائري (١٨٣٢ ـ ١٨٤٧م) وفي السودان على شكل حركة المهدية (١٨٨١ ـ ١٨٩٨م) وفي ليبيا بصورة الحركة السنوسية (١٩١٢ ـ ١٩٢٥م)، وتميزت جميعًا بالمقاومة والرجعة إلى الأصول[1].

وإذا كانت هذه الحركات قد استطاعت أن تحقق بعض النجاح في مقاومة الاستعمار ومكافحة البدع فإنها فشلت تمامًا في تحقيق «نهضة» شاملة بسبب عدم قدرتها على استيعاب مستجدات العصر، أي إنها كانت تفتقد المعاصرة.

والحملة الفرنسية فشلت أيضًا أن تحقق نهضة في مصر، رغم كل الجهود التي بذلتها، لأنها لم تكن تنتمي إلى جذور الأمة، فأخفقت في التفاعل، واستثارت الناس ضدها، وعادت من حيث

١.د. محمد جابر الأنصاري، *تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي*، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٠م، ص ٧.

أتت بعد حين.

أما السيد جمال الدين فقد جمع بين الأصالة والمعاصرة في دعوته، وهذا هو سر كل ما حققه من نجاح، يقول في *العروة الوثقى*:

«الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة، والافتتاح والعزة، ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في اصول هذه الديانة، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكمًا لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أولاً، ملة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة، و إتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزمها من الفنون: كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها! ومن تأمل في آية: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أيقن أن من صُبغ بهذا الدين فقد صُبغ بحب الغلبة، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل سبيلها، والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية، فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه! ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حرّم المراهنة إلا في السباق والرماية، انكشف له مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرين عليها...»[1].

من مظاهر أصالة السيد ارتباطه بالتراث الإسلامي وتمكنه من

١ـ مجموعة *العروة الوثقى*، ص ٦٤ ـ ٦٩، نقلاً عن *الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي*، ط بيروت ١٩٩١، ص ٧٦ ـ ٧٧.

العلوم الإسلامية مما جعل النابهين من الأزهريين في مصر يلتفون حوله ويتلقون دروسه من أمثال: محمد عبده، وعبدالكريم سلمان، و إبراهيم اللقاني، وسعد زغلول، و إبراهيم طلباوي، وكانت هذه الدروس منطقًا وفلسفة وتصوفًا وهيئة، مثل كتاب *الزوراء* في التصوف، و*شرح القطب على الشمسية* في المنطق، و*الهداية والإشارات* و*حكمة العين* و*حكمة الإشراق* في الفلسفة، و*تذكرة الطوسي* في علم الهيئة القديمة[1].

ومن مظاهر أصالته أيضًا اهتمامه بوحدة المسلمين بكافة قومياتهم ومذاهبهم: فهو «يدعو إلى نبذ الخصومة بين السنة والشيعة، ليؤلف بين سلطتين قويتين في رقعة العالم الإسلامي إذ ذاك: بين إيران وسلطة القسطنطينية، بعد ذهاب دولة الهند الإسلامية»[2].

وكان يغتنم كل فرصة للدعوة إلى وحدة المسلمين مستشعرًا الخطر من تفرقهم، ومهيبًا رجال الأمة أن يبذلوا الجهد من أجل تحقيق هذه الوحدة. يقول في مؤتمر دعا له السلطان عبدالحميد في الآستانة:

«الديانة الإسلامية في الوقت الحاضر هي بمثابة سفينة ربانها محمد بن عبدالله (ص) وركاب هذه السفينة المقدسة كافة

---

١. عمر الدسوقي، مصدر مذكور، ج١، ص ٢٣٢.

٢. محمد البهي، مصدر مذكور، ص ٨٣.

المسلمين خاصتهم وعامتهم.

وفي الوقت الحاضر أشرفت هذه السفينة على الغرق في بحر السياسة العالمية، كما تعرضت لخطر الطوفان.

ولعل الحوادث الدبلوماسية، والدسائس الدولية، تؤدي إلى إغراق هذه السفينة وتحطيمها، فما حيلة ركابها وهي مشرفة على الغرق وما هو تدبيرهم؟ فهل يجب على ركاب هذه السفينة أن يبذلوا جهدهم لحراستها و إنقاذها من الطوفان والغرق؟ ألم يظلوا مختلفين فيما بينهم، متبعين أغراضهم الشخصية وأهواءهم الدنيئة؟»[1].

ودفعت هذه الدعوة إلى توحيد كلمة المؤمنين على العمل من أجل الوحدة الإسلامية.

ومن مظاهر أصالته الدفاع عن الدين أمام التيارات الفكرية المنحرفة مثل رده على المذهب الدهري الذي انتشر في الهند في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفيه يقاوم الإلحاد الديني بشكل عام ويوضح ضرورة الدين للمجتمع الإنساني، ثم يذكر مزايا الإسلام التي تكفل للإنسان متعة في هذه الحياة أرفع بكثير

---

١. ميرزا لطف الله الاسد آبادي، *حقيقة جمال الدين الأفغاني*، ترجمه إلى العربية وحققه وحققه الدكتور عبدالمنعم حسنين، ط٢، القاهرة ١٩٩٠م، الجزء الأول، ص ٨٢.

من تلك المتعة التي يهيؤها له اعتناق المذهب الطبيعي[1].

أما طابع المعاصرة فيه فهو أبين وأوضح، وأهم معالمه دخوله ساحة الكفاح السياسي لمقارعة الاستبداد الداخلي والاستعمار الأجنبي. لقد ظهرت دعوة السيد في عصر كان العالم الإسلامي يعاني من الحكام المستبدين الذين يمهدون باستبدادهم وطغيانهم لسقوط العالم الإسلامي بيد المستعمرين الطامعين.

وكانت العقلية العامة السائدة هي الاستسلام لهؤلاء الطغاة باعتبارهم أولياء أمور، وباعتبارهم قضاء مقدرًا من السماء، ولذلك سادت حالة الذل والخضوع والملق بين الناس، وعم الظلم والفساد والطغيان. وفي هذا الجو ارتفع صوت السيد ليقول للمصريين: «إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وربيتم في حجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون بل راضون، وتستنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم التي تجمعت بما يتحلّب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط، وأنتم معرضون. فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم

١.الافغاني، جمال الدين *الرد على الدهريين*، ٨٢ ـ٨٣، نقلاً عن الدكتور محمد البهي، البهي، مصدر مذكور، ص٨٣.

بهذا الذل وهذه المسكنة. تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان، والفرس، ثم العرب والأكراد والمماليك، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت.

أنظروا أهرام مصر، وهياكل ممفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوة، وحصون دمياط؛ فهي شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجداكم.

هبوا من غفلتكم ...! اصحوا من سكرتكم! عيشوا كباقي الأمم أحرارًا سعداء»[1].

وليقول لكل أبناء العالم العربي والإسلامي وهو في فرنسا:

«وأنا تحت سماء الإنصاف على أرض الراحة، بين أهل الحرية أسمع ألحانًا في مجالس العدل، فأذكر أنين قومي في مجالس الظلمة، وتحت سياط الجلادين، فأنوح نوح الثاكلات، وأرى علائم النعمة في معاهد المساواة، فأذكر شقاء سربي في ربوع الظلمة، فأذرف الدمع ممتزجًا بسواط القلب فأكتب إليهم: يا قوم ظُلمتم غير معذورين، وصبرتم غير مأجورين، وسعيتم غير مشكورين، فهلكتم غير مأسوف عليكم، تصبرون على الظلم حتى يحسبه الناظر عدلاً، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حليًا، وتخفضون للظالمين جناح الذل حيث يقول من يراكم ما هؤلاء بشر إن هم إلا

---

١. سليم عنحوري، *تاريخ محمد عبده لرشيد رضا*، ج١، ص ٤٦، نقلاً عن عمر الدسوقي، مصدر مذكور، ج١، ص ٣٠٨.

آلة سخرت للناس، يفلحون بها الأرض ويزرعون. يقلب الجائرون عليكم أنواع المكايد وأصناف الحيل وألوان الخداع فيما يختلسون كما تقلب المشعوذة لدى الأطفال أوجه الودعات في استخراج ما يضمرون.

رأيت فلاحهم في حقله الصغير يتناول الطعام أكلاً مريئًا، وينام القيلولة نومًا هنيئًا، ويأوي إلى البيت فيأكل بين عياله ويتلو عليهم صحيفة النهار، ثم ينام ملء عينيه، لا يحلم بسوط المأمور ولا يتصور عصا الشيخ، ولا يتذكر حبس المدير، فتخيلتكم بين السواقي والأنهار تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء فتلتهموا فتات الشعير، وتنكبّوا على الترعة فتشربوا الماء الكدر، تعودون إلى الأرض المريعة تزرعونها، والغلة الوفيرة تحصدونها لتنصرفوا إلى أكواخ تشبه قبورًا توالت عليها السنون، فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف أبدانهم الوقاء، ونساء تعوّضن الأقذار عن الكساء، ثم يأتيكم المأمور سالبًا، والشيخ غاضبًا، والمدير ناهبًا، فأنتم في بلاء مستقر، وعناء مستمر، تحصدون البر ولا تأكلون، وتملكون الأرض ولا تسكنون».

«لقد بُليتم بما يذيب الشحم ويفري اللحم، وينقي العظم وأنتم صابرون؛ ومُنيتم بما وفّر النقم وغيّر النِعم وأهلك النَعم وأنتم صامتون، ورزقتم بما جلب المصاب، وهتك الحجاب، وأبرز الكعاب وأنتم خاشعون، فما الذي تخافون؟

تقولون لا نرضى بهذا الخسف، ولا نقوى على احتمال الذل، فقد

صار تاجرنا عاملاً، ونبيهنا خاملاً، وعالمنا سائلاً، فلم يبق فينا غير الأجير والتابع والشحاذ والزارع، والجندي منخفض الجانب، والشرطي منقطع الراتب، بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوة يمينه، ويسقي الغرس بماء جبينه، نزيل في دار أبيه، وغريب في أرض ذويه، يحصد مما زرع ولكن لسواه ، ويجتني مما غرس ولا يذوق جناه.

وكأني بكم عصابة، من أهل الهمة والإصابة، ترفعون الأصوات في طلب الحق المسلوب، وتمدون الأكف لالتماس المال المنهوب، وتجعلون الأبدان للوطن سورًا يرد عنه العدو مذعورًا، وأنتم الكلمة المتحدة والقوة المتجمعة هي أقوى من العدد الكثير إلا أنكم تترددون.

فيا حليف الصبر ويا نضوَ العناء، نداء مشارك في بلواك، وسامع لنجواك، دع التردد إن أردت النجاح والنجاة، وأقدم، فرب حياة تكون في طلب الموت، ورب موت يجيء من طلب الحياة»[1].

ومن مظاهر معاصرته أيضًا ارتباطه بالنخب المصرية من المثقفين والأدباء والشعراء خلافًا لما كان عليه عامة الأزهريين من انغلاق. كانت له إلى جانب دروسه العلمية المنظمة جلسات مستمرة في إحدى مقاهي القاهرة قرب حديقة الأزبكية، يلتف حوله انماط شتى من الراغبين في التزود من علمه وفكره، وهو يجيب على

١- الافغاني، *الدرر*، ص ٧٠ -٧٢، نقلاً عن عمر الدسوقي، مصدر مذكور، ص ٣١٠ - ٣١٢.

الأسئلة «لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل، او يطهر العقيدة، او يذهب بالنفس إلى معالي الأمور او يستلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام العطلة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر، وتنبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصًا في القاهرة»[1].

يقول عمر الدسوقي: «في هذه الحلقة انشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب، ولكنها كانت روحًا مشعة تبدد دياجير الغفلة، وتحيي العزائم الميتة، وتلهب الإرادات الخامدة وتفتح الأذهان المغلقة، وفيها تخرج محمود سامي البارودي، وعبدالسلام المويلحي، وأخوه إبراهيم المويلحي، ومحمد عبده، و إبراهيم اللقاني، وسعد زغلول، وعلي مظهر، وسليم نقاش، وأديب إسحاق وغيرهم. وفي هذه المدرسة العامة، استعرضت حال الأمة الاجتماعية والسياسية، وحقوقها وواجباتها، وداؤها ودواؤها، وانتقد الحكام، وبثت التعاليم، وفتشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم في شؤون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد.

كان جمال الدين يقضي بياض نهاره في بيته يختلف إليه

١- من *ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده له*، نقلاً عن عمر الدسوقي، مصدر مذكور، ج١، ص ٣٣٣.

أعضاء تلاميذه، وما إن يقبل الليل حتى يخرج متوكئًا على عصاه إلى هذا المقهى، فيجد في انتظاره الطبيب والمهندس والأديب والشاعر والمعلم والكيمياوي وغيرهم، ويظل يحدثهم بشغف وقوة حتى يمضي جزء كبير من الليل»[1].

ومن مظاهر معاصرته أيضًا دعوته إلى فتح باب الاجتهاد، لكي تواكب الشريعة المقدسة تطورات الظروف يقول:

«ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا فطرة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده»[2].

هذا الجمع بين الأصالة والمعاصرة هو الذي خلق النهضة الحديثة في مصر وانتشرت منها إلى سائر أرجاء العالم العربي، وأثرت على الأدب العربي فطورته ودفعته إلى عصر جديد كما سنرى.

١- المصدر نفسه، ٣٣٣ -٣٣٤.

٢- عمر الدسوقي، مصدر مذكور، ج١، ص ٣٤٧.

مأساة الطائفية في ذكريات الجواهري

رحل الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري، بعد أن خاض تجربة حياتية تقرب من القرن وفيها شاهد كل ما مرّ على بلده والعالم العربي والإسلامي من مآس. ومن تلك: الأحداث «الطائفية» البغيضة التي شهدها بلده فاكتوى بها وسجلها على بعض صفحات *ذكرياتي*. وتشكل وثائق هامة عن هذه الظاهرة وعمن وراءها من رموز مشبوهة عبثت بمقدرات هذا البلد المسلم.

تبدأ قصة اكتواء الجواهري بنار الطائفية من قضية «الجنسية العراقية»، والمقصود بالجنسية هو الوثيقة التي يحملها المواطن لكي يثبت بها انتماءه إلى وطنه. وحين رُشّح الجواهري للعمل مدرسًا في المدرسة الثانوية كان عليه أن يبرز الجنسية ولم يكن يحملها. لأن العراقيين كانوا مصنفين آنئذ إلى «عثماني» يحمل الجنسية العثمانية أيام سيطرة الدولة العثمانية على العراق، وهو الذي يحق له بحكم قانون الجنسية العراقي أن يحمل الجنسية العراقية بعد «الاستقلال»، وإلى غير عثماني وهو من أبى لأسباب عديدة أن يحمل الجنسية العثمانية، فاعتبره القانون غير عراقي!! وهذا القانون ينطوي على مؤامرة طائفية مدروسة، لأن أغلب شيعة العراق أبوا

حمل الجنسية العثمانية، فاعتبرهم القانون غير عراقيين.

يتحدث الجواهري عن قصته في الفصل الثالث من الجزء الأول من «ذكرياتي» فيقول:[1].

«تلقيت في أوائل عام ١٩٢٧ وأنا في مدينتي «النجف» من صديقي «باقر الشبيبي» يخبرني فيه، أنني مرشح للتدريس في إحدى ثانويات العراق، وكان ذلك خبرًا طبيعيًا، لكن الشيء الذي فاجأني مفاجأة لا تخطر على بالي بحال من الأحوال أن يكون شرطًا في ذلك تقديم «الجنسية العراقية».

تلقيت أوراقًا هي بحد ذاتها غريبة عليّ، بعيدة عني، أوراقًا لا أكاد أصدق مافيها، واحدة منها كانت استمارة بتعداد المذاهب والأديان والجنسيات وفيها أكثر من عمود يحمل تساؤلاً «هل أنت عراقي؟» مفهوم أنني عراقي، ثم وبالحرف الواحد، هل أنت مسلم؟ طبعًا مسلم. والمفاجأة الأخرى التي توقفت عندها بأكثرها من غيرها: هل أنت شيعي ؟ هل أنت سني؟ وهذه كلها وثائق محفوظة لدى وزارة المعارف الآن، وبالنص .. وكان كل ذلك في عهد ساطع[2]، وهو أول مدير للمعارف في العراق..

تسلمت الأوراق فجأة وبكل بساطة كتبت مستهزئًا وساخرًا بأكثر من تساؤل وعلى سبيل، سؤال: ماهي شهادتك المدرسية؟ كتبت إن شهادتي «لا إله إلا الله!!»، كما أجبت على سؤال عن شيعيتي، أجل أنا مسلم، وعن سنيتي بمثلها. أجل أنا مسلم . وعن عراقيتي، وهنا أحب أن استوقف القارئ، أجبت: إنني هندي!!».

١- *ذكرياتي*، ط دار الرافدين/ دمشق، ج ١، ص ١٤١ ومابعدها.

٢- يقصد ساطع الحصري.

يتألم الجواهري من هذه الظاهرة التي قلّ لها نظير في العالم، ويتحدث عنها باعتبارها مظهرًا من مظاهر الحقد الطائفي في بلده ويقول:[1]

«طفت بكل البلدان العربية وسألت في بلدان عديدة أخرى عما إذا كان يوجد في أي مجتمع نظير لمثل هذه الفضيحة، أن يكون أهل البلد بعد انحسار الاحتلال الاجنبي، أجانب في التبعية إذا لم يثبت تمتعهم بجنسية الأجنبي المحتل، فلم أجده، ولا أعتقد أن هناك من يقدر أن يرد عليّ ويورد مثالاً لذلك في كل ما وجدته قبل هذا وأنا في عزّ شبابي في النجف وتوسعت فيه بعد ذلك. إن من يولد «بمجرد الولادة» في أمريكا فهو على حق من أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية وأكرر هذه الكلمة .رئاسة الجمهورية .وأنا في براغ وما أزال حتى يومي هذا فإن من تضعه أمه في طائرة تحلق فوق سماء براغ وتحط فيها فهو بحكم دستورها، جيكوسلوفاكي لمجرد ولادته في سمائها وليس على ترابها حسب.

ولماذا نذهب بعيدًا؟ والمثال الشاخص بين أيدي القرّاء في هذا اليوم، إن «كسينجر» وزير خارجية الولايات المتحدة برمتها هو من مواليد المانيا، وقد التحق هو بنفسه لا بأبيه ولا بأمه ليصبح وزيرًا لأهم وزارة في موطنه الجديد. وبأكثر من هذا كله وبأقرب موعد منه، فالمرشح اليوم، وأنا في الشهر التاسع من عام ١٩٨٨ لرئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة الامريكية هو من أبوين فقيرين من اليونان.

١- المصدر نفسه، ص ١٤٥ ومابعدها.

لقد استمرت السلطة تلعب لعبة الطائفية في العراق، وتشد الأوتار، في هذه اللعبة المفضوحة، وفي عهد «عبدالسلام عارف» بدأت حملة استهدفت إفراغ العراق من أبنائه من الشيعة، قدر الإمكان، وأقول هذا لأجل الحقيقة و إدانة لهؤلاء الناس الذين لا يكفون عن زرع هذه السموم في هذا البلد.

أقول هذا وأنا أتساءل عمن سيبقى في العراق من أهل البلد وسكانه بعد هذا التفريغ المصطنع، وبعدما يفترض مما أن يكون الشك في أصل التجنس أو طالب شهادة الجنسية يتساوى في الحالين. فقد يكون حامل الجنسية الإيرانية من أصل إيراني فعلاً، بالقدر نفسه من الاحتمال والترجيح والإمكان، يمكن أن يكون حامل الجنسية العثمانية تركيًا وغير عراقي أيضًا! ذلك لأن العراق كان ولاية تركية لأكثر من أربعة قرون، فكان من الطبيعي والمتوقع بل والمفروغ منه أن تتوافد عليه أعداد كبيرة من الأتراك الحقيقيين والأصليين وأن يعيش هؤلاء في العراق ويندمجوا بأهله وينسوا لغتهم الأصلية فيصبحوا عربًا كغيرهم من أهل البلد ثم أن يحملوا الجنسية العراقية فيما بعد وفقًا لقانون الجنسية العراقي الذي شرع بعد إقامة الدولة العراقية. ومع ذلك لم تبحث السلطات عن أمر هؤلاء الناس من ذوي الأصل التركي لإبعادهم عن العراق كما فعلت مع غيرهم».

ومع أن سمة التدريس في الثانوية قليلة بحق هذا الرجل النابغة، فقد عملت الأحقاد على تقليل سمته ليكون معلمًا في الابتدائية، بل حتى التدريس في الابتدائية لم يخفف من غلواء تلك الأحقاد، فقدتشبث «ساطع الحصري» ببيت شعر قاله الجواهري وهو يزور

إيران، فاعتبره «شعوبية» يستحق الشاعر بموجبها أن يفصل من وظيفته يقول الجواهري:

«داومت قرابة الشهر واذا بي وأنا أفاجأ قبيل عيد الأضحى بمدير المدرسة، وهو صديقي ورجل كريم، ليقول لي وبالحرف الواحد: «إنك مطلوب للحضور لدى مديرية المعارف في العاصمة» وأنا بحكم تسلسل الوظائف تابع لها «لماذا؟، لا أدري». ذهبت ووجدتني أقف بين حفنة من الهررة الجائعة، عرفت من بينهم «طالب مشتاق» و«نوري ثابت» الملقب بعد ذلك بـ«حبزبوز» وسيأتي الحديث عن كل واحد منهما في المناسبة المطلوبة. كانا من الرموز التي يضرب بها المثل في التعصب المذهبي البغيض. والتي بعد ذلك بثلاث سنوات شملها التذليل «العزل» ولم يكن هناك وفي هذه الحفنة شخص واحد يمثل الأكثرية الساحقة في العراق وممن أنا في الصميم منهم. ولكي تكون الصورة واضحة وأمينة فقد كان بينهم «أحمد أمين» المدرس .كما أتذكر .للرياضيات والملازم وشبه المترجم لساطع، الحديث العهد بتعلم اللغة العربية.

ومهما يكن الأمر، فقد ذهبت إلى مديرية المعارف، لتفاجئني هذه الهررة برئاسة «ساطع» نفسه، بأنني نشرت قصيدة في جريدة أسبوعية كان يصدرها «عبدالرزاق الحسني» عن ذكرياتي واصطيافاتي في إيران والتي أوردت النماذج الحلوة منها قائلاً إنني أعتز بها وبالنقلة الجديدة فيها، وكانت كلها لهفة مؤثرة وساخنة بالحنين إلى الوطن، أي من ذلك النمط الذي سبقني إليه (حسان بن ثابت) سيد الشعراء المخضرمين الذي تحلى بهم العهد الإسلامي وبالتحديد عن الرسالة النبوية الأولى، شاعر الغساسنة الكرام في

بلاد الشام وهو يتشوق إلى دمشق عاصمته وعاصمة أخواله:

لله در عصابـة نـــادمتهم يومًا (بجلّق) في الزمان الأول

بل والذي زاده عليه، وفي هذه الحقبة الأخيرة بالذات الرصافي وهو يعلن بغداد بل والعراق كله في قصيدته التي يقول في جملتها:

ويل لبغداد مما سـوف تذكـره عني وعنهـا الليالـي والدواوين

أما البيت الشعري في قصيدتي والأصح جريمتي، تلك، هو:

لي في العراق عصابة لـولاهم مـاكـان محبوبًا إليّ عـراق

والذي ورد ـ كما أشرت ـ ضمن قصيدتي المشحونة بالحنين إلى العراق وحسبي مطلعها:

هـبّ النسيـم فهبت الأشواق وهفا إليكـم قلبـه الخفـاق

ومع هذا فقد «بربرت» الهررة الجائعة، مستشهدة به «أن فيه ما يشبه التنصل من العراق والتمدح لإيران» التي كانت خصمهم الوحيد دون كل القوميات والمذاهب الأخرى، بما في ذلك المحتل البريطاني الغاصب للعراق، أما لماذا إيران بالذات؟ فذلك لأن الدولة الفارسية كانت هي من دون كل الدول الإسلامية المسحوقة تحت كلكل ما يسمى بالخلافة العثمانية، الوحيدة التي تواجهها على طول الخط الذي يمتد بها نفوذها في مشارق الأرض ومغاربها قوةً ونفوذًا وعنصرًا ومذهبًا بل وحضارة وعراقةً، والتي امتدت الحروب فيما بينها وبين الخلافة المزعومة على العراق نفسه، ولأكثر من قرنين من الزمن. أقول عن يقين إن هذا البيت لو كان مدحًا لبريطانيا وتشوقًا إليها أو لتركيا لكان داعية للترقية وليس للفصل من الوظيفة، و إذا بي وكما قلت وكأنها هدية العيد، أسلم أمرًا إداريًا بفصلي من وظفتي».